الأعمال الإبداعية



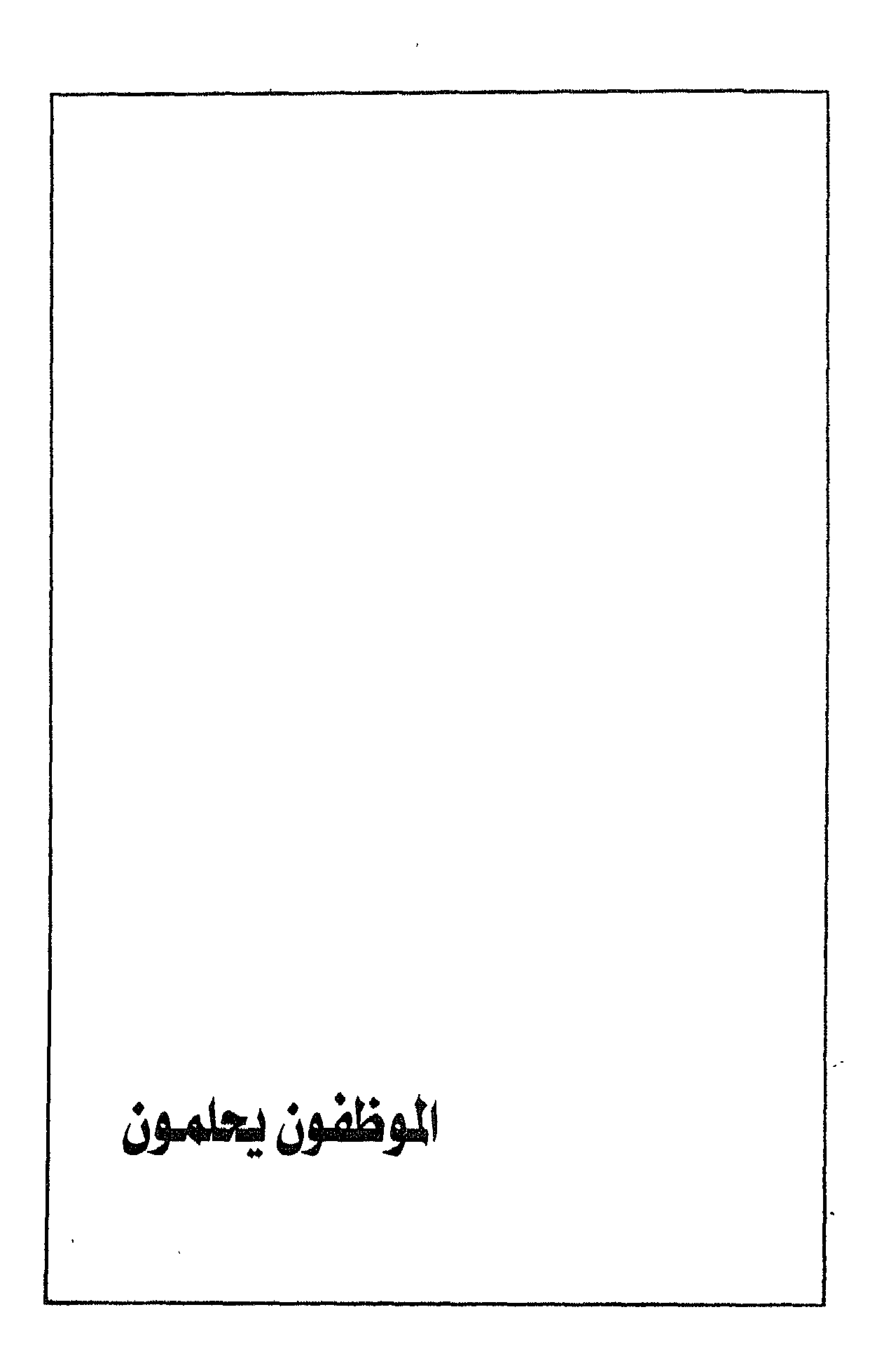
مهرجان القراءة للجميع
عشر سنوات
2000

خطاب تعيين

منى ثابت

موظفون .. يحلمون !!

المصرية
العامة للكتاب



الموظفون يحلمون

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني: كاريكاتير
التقنية: حبر أسود (شينى) على ورق .
المقاس: ٢٥ × ٣٥ سم

صلاح چاهين

رسام (كاريكاتورى) وشاعر وفنان شامل، متنوع ومتعدد الابداعات، توفرت لديه القدرة على التحليق فى الخيال، فخلق عالمه الخاص، متجاوزاً الواقع.

كان الكاريكاتير فى بداياته أجنبى الطبع والطابع، إلى أن جاء الفنان عبد السميع عبد الله وحرره، ممهداً الأرض للأجيال التالية، فجاء صلاح چاهين بأفكاره الطازجة، وتدفقه، وشكل مع رجائى ونيس وجورج البهجورى، المدرسة الحديثة لفن الكاريكاتير المصرى، والتى امتدت إلى كل ربوع المنطقة العربية، وواكبهم بهجت عثمان وأحمد حجازى وإيهاب شاكر.

ولصلاح چاهين عدة شخصيات محورية فى مسيرته الفنية «قيس وليلى» و«نادى العراة» و«صباح الخير أيها الـ...» و«ضحكات مكتبية» و«فى دواوين الحكومة» و«الفهامة» و«قهوة النشاط» و«درش».

محمود الهندى

الموظفون يحلمون

منى ثابــت



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

الموظفون يحلمون

منى ثابت

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

رسالة خاصة

إلى صلاح شاهين

مازلنا كما تركتنا .. زبائن ذاهلين
نتوارث مقاعد قهوة النشاط .. نسخر
من أنفسنا .. نضحك على بلاوينا ..
يا فتاح يا عليم .. ياترى الضحك مرض
.. أم هو بوادر الشفا !

نفتقدك .. ولن ننساك .

الموظفون
عنهم / منى ثابت
٧ / ٧ / ٢٠٠٠

الحق كالموت ..

منبوذ لكن حتمى ..

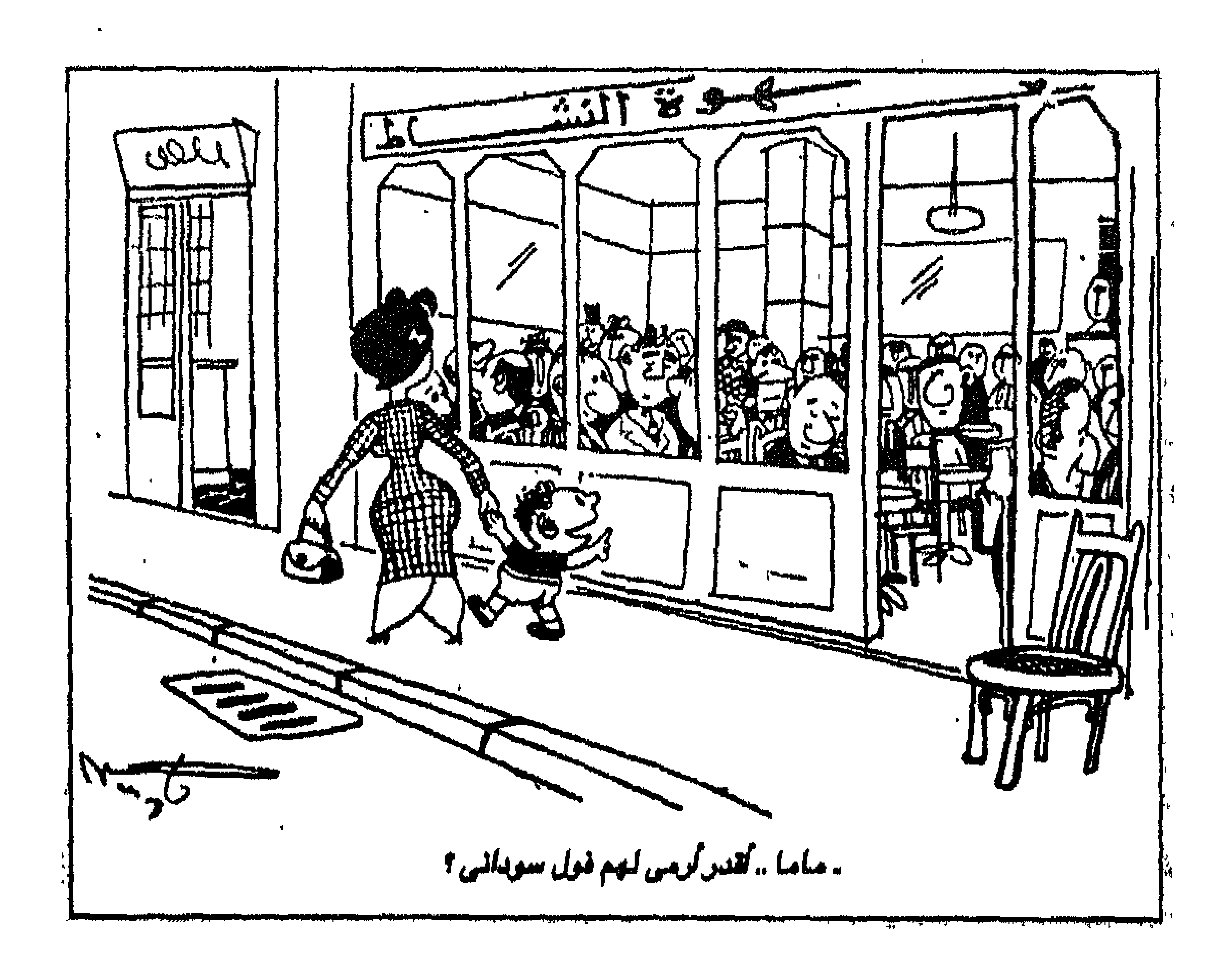
اعجبتنى هذه العبارة .. ونسيت أين قرأتها .. لكننى حفظتها .

وهذه المجموعة القصصية هى لقطات من حياة موظفين .. مهداه لجميع فئات الموظفين الحالمين بالحق .. والفاسدين .. ليرى كل منهم صورته .

مع تحية خاصة منى إلى فريقين من الموظفين .. الأندال .. والمتمردون على النذالة .. لأنه لولا قبح المرتشين والجبناء والمنافقين وباقى عائلة الأندال .. ما كان ضياء الأخلاق والمبادئ استمر ساطعا .. ولما أنبت وأثمر سلاما فى قلوب الشرفاء .. واطلق سخريتهم زهورا تجمل الواقع .

ودمتم !

منى ثابت



- ماما .. أقدر أرمي لهم فول سوداني ؟

محظوظ التربابس

اسمه الحركي «محظوظ» ولقبه «التربابس».. وهو موظف تافه في مكان مهم.. أسمر.. ضخم.. لا تتذكر من ملامحه سوى عيونه السوداء المستديرة شحيحة الرموش.. لأنها كاذبة.. نهمة.. ومتوترة.

وشذه أول مرة في حياته يتجرأ بتهور، وينحشر في «جلسة رجال» ليتمعن ملامحهم عن قرب.. ولكن، عاجله سوء الحظ، وها هو الآن بكامل وجاهته المفتعلة «اللزجة».. مقرفصاً على تعاريج الأسفلت المسامي لزنزانة عتيدة عطنة.. ما موقفه؟ مسجوناً سياسيا! ومع من؟! مع مزيج عجيب من رجال حقيقيين.. هم فطاحل ومشاهير المثقفين.. ومع قشور رجال من محترفي المواقف.. والمندسين.. والفضوليين.

وهو.. هو وحيد.. غريب.. فارغ وضئيل، نشاز بصمته ورعبه وسط هذا الخليط البركاني.

يبحلق فيهم بعيون خضبها ضغط الدم.. وتعود الذل.. يبحث عن شريك في الرعب.. وهو يبرطم ويلعن.. التقط أحد المذعورين مثله.. تكور بجانبه صامتاً.. بسرعة ربطت بينهما دوائر ذبذبات خاصة.. والتحم الحوار بينهما وتدفق.. وهو ينهل في نهم ما خفي عليه، وما فشل في معرفته من معلومات عن كبار المساجين حوله.. ورأسه يهتز من ثقل المعلومات الموجزة النافذة بحدة وحذر داخل

أذنيه.. ومع اهتزازات رأسه كبندول الساعة المعكوس.. يتمتم بشفاهه فقط «اللّه يرحمك يا أبى». ويستمر فى «البرطمة».

عندما تقهقر حديث رفيقه الفضولى «اللزج» للماضى.. استدارت فتحتا عينيه كحدقتي آلة تصوير.. فرأى أباه «الغامض».. الاستاذ «زكى».. وتساءل ربما لأول مرة.. هل كان أبوه «ترباسا» فعلا كما لقبه أهل حى الزيتون منذ خمسة وأربعين عاما؟!

بآلية سقطت عيناه على حذائه.. فسارعت أصابعه بالتقاط قطعة الجوخ المدرسية القديمة من جيبه. وانهمك بتلقائية في تلميع حذائه بكل دقة.

نظر بركن عينيه إلى رفيقه المندهش.. وهم بتبرير تصرفه.. فكرته ذاكرته بنصائح أبيه.. التي يحفظها كجدول الضرب: «لا تبرر تصرفاتك أبداً.. انظر فى عين محدثك بقوة لتربكه.. تجنب الألفاظ المحددة.. لا تثق فى مخلوق.. لا تواجه.. ولا تتورط فى مواقف.. ولا تعلن عن رأيك أو مشاعرك أبداً أبداً.. احذر.. وتأكد من منافذ الهروب أولا.. ارسم على وجهك الحزن أو الضعف فقط.. لا تزد أبدا عن شبح ابتسامة.. انحن للصغير والكبير.. وكن «لامعا» دائماً.

هزه رفيقه فى كتفه وسأله: «أنت بتشتغل إيه»؟ فكرهه.. وضاق من فضوله وأجاب باقتضاب ليخرسه: موظفا.. ثم قطع ما اتصل بينهما وهو منكس العينين.. وارتدى الوجه الخائف بحزن.

فى هذه اللحظة الخانقة.. ارتد خمسة وأربعين عاماً.. فأصبح طفلا فى الثامنة. وحيدا رغم تلاحم المنازل المكتظة فى الزيتون.. ها هو يهرب من أطفال الجيران الملاعين.. الذين يترقبون لحظة نزوله السريعة منفرداً من اتوبيس المدرسة الفاخر.. ليسألوه «أبوك بيشتغل إيه»؟ و«يعنى إية موظف»؟ و«فين»؟ «بيتكم شكله إيه»؟ ليه أبوك دائماً لابس بالطو وماسك جرنال؟ وليه كل ما يصاحب واحد يختفى؟

وكأن أبوه يقضى أغلب يومه بالخارج.. وأمسياته لدى جزمجى الحى العجوز.. والصوت الوحيد الذى يصدر عن أبيه الغامض الصامت ليعلن عودته للمنزل.. هو صوت «المزيكة» المنتظمة لتزييق حذائه اللامع جداً.. وبمجرد ظهور الصوت.. يتشبث أطفال الجيران بحديد شباك «المنور».. مرددين جملتهم المنغمة السخيفة.. «الأستاذ مزيكة وصل».

اشتكاهم بدموع ملتهبة بالعجز والامتهان والوحدة.. فتفرغ أبوه يوما لوضع «ترابيس» على شبابيك المنزل.. وأولها شباك «المنور».. وبدل الزجاج الشفاف بآخر «مصنفر».. ليحجب عيون وشائعات وغلاسة الجيران عن «محظوظ».

دوى صوت الشاويش.. «جمعة زكى».. فهب ليخرج وهو منحنى «افندم»! ورد على استفهام الإدانة الصامت لرفيقه بتكشيرة.. تغلف فرحة النجاة المفاجئة بقناع الخوف و«المسكنة».

«أصل محظوظ» ده اسم الدلع.. فرضته جدتي البرجوازية على أمي يوم ميلادي.. ثم توقف عن الاستطراد قامعاً بقية العبارة: «لأن المرحوم» كلبها الغالي. كان اسمه «لاكي» أي «محظوظ».. ولأنها أرادت إذلال أبي وبيئته وأصله وحقيقة عمله الذي كانت تجهله.. فأسرع أبي مستغيثاً بالحكومة.. وسجل أسمي «جمعة» في سجلاتها الرسمية.. ولم نعرفه سوى يوم دخلت المدرسة الابتدائية.

بيده نفض التراب عن بنطلونه الرمادي في المؤخرة.. وعلى الأطراف.. وأحكم زراري الجاكت البليزر الزرقاء «التقليد».. وانحنى يخرج من باب الزنزانة مدعيا التجهم والأهمية.. والخوف أيضاً.

اصطدم في انحنائه بسائقي المساجين «الكبار».. يدخلون حاملين الجرائد والملابس والطعام الفاخر وأجود أنواع التبغ.. ليعودوا حاملين قوائم الطلبات الجديدة من الأهل والأصدقاء.. فأعطى لأحدهم ورقة صغيرة يطلب من زوجته سرعة إرسال الطقم «البليزر» الاحتياطي.. بحذائه.. و«الأحجبة»!

ولكنه لم يعد لمنزله.. وأيضاً لم يعد للزنزانة.. إنما تسلم منصبا خطيراً.. دخله وهو منحن أدباً.. وشكا!

صرف المستقبلين المتأففين من وجوده «ببجاحة».. بابتسامة بلهاء متعمدة.. وأسرع بتفقد المكان.. للغرفة الفسيحة باب يفتح على السكرتارية.. وآخر على الممر.. «معقول جداً».. وباب صغير على سلم جانبي.. كما توقع تماماً!

بخبرة وسرعة نزع الأكر الخارجية للأبواب كلها.. أسدل الستائر.. وأخرج من حقيبته الصغيرة مجموعة ترابيس وعيون سحرية.. ثبت بعضها مكان القديمة المخلوعة حديثا.. والآخر في أماكن عبقرية جديدة.. ثم أطلق البخور في الغرفة.. ووضع حجاباً تحت عتبة كل باب.. وفتح زرارى الچاكت البليزر.. ورفع إحدى قدميه على طرف مقعد وثير.. وانحنى منهمكا في تلميع حذائه بضربات متتالية من قطعة الجوخ الصفراء.. يميناً ويسراً.. حتى سمع لحذائه رنيناً «كالمزيكة».

ضحكات مكتبية



القومسيونجي — دي ياأكسلانس اسمها « رفاصة » .. تدوس كده ترفعه كده !!

الفقيد العزيز!!

قبل أن يجف السم من قلم رئيس الشركة الجديد . . .رن التليفون بجواره . . لعن السكرتيرة بصوت مرتفع سمعته هي ومن معها من وراء الباب المغلق . . لأنها خالفت أو امره بمنع التليفونات والزوار أيا كانوا . . عليه أن يكمل وينتهي من عريضة التشهير والتلفيق للرئيس المخلوع الذى يجلس هو مكانه الآن .

هذه الغبية لا تفهم حجم المعاناة والضغط لاختيار ألفاظ وعبارات مؤثرة . . تطعن وتذبح وتمثل بجثة الرئيس المخلوع . . وتطفو فوق سيف القانون . . صحيح أن المستشار القانوني للشركة سيتلقفها ويراجعها بمهارته المعتادة . . لكنه يعلم أنه أولا سيحتفظ بالنسخة المكتوبة بخط يده في ملفه ليطعنه بها مستقبلا . . عندما يحين دوره هو أيضا . ويقررون التخلص منه واستبداله بآخر لأسباب لن يعلمها أو يصدقها غيره هو شخصيا .

عموما هذه طبيعة دورة الحياة لهذا المنصب القصير العمر . . وهذا الكرسى الذى يحمل فرحة السلطة ولعنة حقد الموظفين . . صحيح أنه حتى الآن لم يفلت منه أى حرف من الحروف الممنوعة . . مثل ماذا ولماذا وكيف . . . وطبعا لم يصل لمرحلة مجرد التفكير في استخدام« لا »أو« لن» أو حتى« ربما » . . إلا أن الحرص واجب طالما دخل عرين الأسد وقرر السكن بين أهل الغابة . . شاءوا أم تأففوا ! .

انقطع عنه الرنين دقائق أعادت اليه تركيزه.. سال السم بسلاسة من قلمه وتهادى.. فى لحظة تجدد صراخ التليفون فجذب عدته كلها وألقاها بقوة على باب غرفته لاعنا السكرتيرة بأقذر ما يعرف من الفاظا دون اختيار.

الغبية لا تفهم أن المسؤل الأول عن الشركة ينتظر هذا التقرير بعد ساعة واحدة. ماله اليوم؟.. لم يعان هذه الصعوبة من قبل فى تفصيل الاتهامات على أى ضحية.. سواء مخلوعة أو مازالت تقاوم .. لديه خيال بوليسى دعمه سنوات بقراءة المغامرات ومتابعة أفلام الأكشن والجاسوسية ومصادقة رجال المباحث.. وصفحات الحوادث.. لديه حصيلة وذخيرة وطاقة ورغبة فى التمثيل بالضحية.. لماذا اذن المهمة ثقيلة؟!..

يستحضر طيف رئيسه المخلوع.. صورته.. صوته.. حورات دارت بينهما هنا. يترجاهم إلهامه بعبارات ومواقف تساعده لينسج عليها تفاصيل الإدانة:

وجاءت اللحظة.. أضاءت لمبات شياطينه كلها وتوهجت.. تذكر يوم جاء هنا ذليلا يطلب حماية هذا البائس المخلوع.. وكان جالسا على نفس الكرسى يتفحصه بعينين ثاقبتين كأنه يسلخه.. وهو جالس أمامه يتحدث همسا وذلا.. يطلب حمايته ويترجاه انتدابه هنا تحت رئاسته.. كيف نسى هذا اللقاء والحوار المختصر وكرابيج نظراته؟.. سحب نفسا يهدئ به سرعة نبضات قلبه.. وعاد بظهره يتلمس ظهر المقعد كأنه يتأكد من وجوده خلفه.. ويستمد منه بعض

الشقة.. لسعته كهرباء نفضته للأمام منكبا كما كان على الورقة.. حرارتها ألهبت السم ودفعته من قلبه وعقله الى قلمه.

صورة رئيسه المخلوع مطبوعة على الورقة الآن أمامه.. يكتب عليها بخط عريض: خدعنا بشعارات روجها عن نفسه.. أطلق على نفسه لقب الفارس النبيل.. حكى لنا كثيرا عن وقائع جرأته في حماية الشرفاء.. كلامه كان يبدأ وينتهي بأحاديث شريفة وآيات القرآن البينات.. أخذ يكتب وكأن الفارس المخلوع يمليه.. صوته يهدر في الحجره بالعبارات التي يحفظها الأغلبية هنا.. هايل.

انتهى من سرد أدلة معاشرته عن قرب للفارس الراحل.. ليبدأ الآن الفصل الثانى من التقرير.. إنه الأسهل بحكم الخبرة والممارسة..

وحده جرى القلم بالجملة التمهيدية «ومالا يعرفه الموظفون هنا هو الآتى..».. والآتى كثير ومثير وشامل.. مخالفات مالية وإدارية وتفاصيل رشاوى وعلاقات مشبوهة برجال وسيدات أعمال متنوعة!.. بأدلة وبراهين مدعمة بأرقام وتواريخ كلها محفورة في ذاكرته بمجرد أن سردها أمامه الرئيس المسؤل عن الشركة أمس.. وأمره بكتابتها في تقرير يوقعه هو ومن يجد فيه الكفاءة ويرشحه لشرف الشهادة معه.

يسيل السم الأسود بمهارة على الورق.. يرسم حروفا عريضة واثقة ويسقط فوقها النقاط تؤكدها... يلطخ جبهة الفارس المخلوع كلها.. ويهبط بها على عينيه يغلقهما.. وعلى أنفه يسد مداخل الهواء.. وعلى فمه يمنعه من الكلام.. من التكذيب أو الدفاع.. من الهجوم المضاد .. كاد الوجه كله أن يختفي.. أجهز عليه ببراعة.

رفع رأسه لالتقاط نفسا عميقا مريحا يزيح الثقل عن أكتافه.. مطلقا زفيرا ساخنا على وجه الفارس الراحل.. المدفون الآن تحت سواد السم.. فانفجر فيه الوجه.. تطاير رذاذ الحبر المسموم على وجهه.. دفعات الحبر الحارقة المرتدة هى قذائف عبارات الفارس فى ذلك اليوم الذى أذله فيه هنا ورفضه بكل تهذيب.. لم يسبه أو يذكره بماضيه أو حاضره.. فقط قال له بهدوء وبعد تركيز طويل فى عينيه.. أعرفك جيدا ولا مكان لك هنا.

مسح وجهه بأصابعه يزيل بقايا ما ارتد إليه.. وضحك بصوت مسموع.. انظر أين أنت الآن وأين أنا على رأى أم كلثوم؟.. غدا تأتى الى هنا..تجلس أمامى على المقعد ذاته.. تتحدث هامسا ذليلا ترجو أن أرحمك وأغلق ملفك وأتركك بعيدا فى سلام.. وكفاك استبعادك من المنصب وهروب مريديك.. وتخاذل مؤيديك.. وانقلاب مرؤوسيك.. وتبدل لقبك من الفارس المخلوع الى«المغفل».

ارتاح... عاد السم ينساب بيسر.. زال التشنج عن أصابعه.. وعن عموده الفقرى.. وعن أطرافه كلها.. هدأ وهو يستعد لكتابة الفصل الثالث من التقرير.. هذا أسهل جزء.. الإشادة بالرئيس المسئول المنتظر التقرير الآن.. إنجازاته.. كرم أخلاقه.. خططه الطموحه للشركة.. تعففه عن قبول عمولات أو هدايا الصفقات التى يخطط هو وحده لها لصالح موظفى الشركة.

توغل فى المديح، وبدأ الدخول فى جذور عائلة سيده المسئول الكبير.. عائلة عريقة ثرية أياديها البيضاء معروفة.. رفع وجهه

باحثا عن السماء من النافذة.. أو عن زهرة في الحجرة أو لوحة يستلهم منها تعبيرا رقيقا يزين به وجه المسئول.. اصطدم بسكيرتيرته واقفة صامتة أمامه عن بعد.. متى دخلت؟.. عيناها تترجى«هل أتكلم؟».. أكيد هناك شيء هام.

أومأ لها برأسه لا مانع.. تقترب مرتبكة تسبقها نظرة ذعر وحزن.. دفعت أمامه ورقة بيضاء كتبت عليها عبارة واحدة بخط كبير..توفي الرئيس المخلوع صباحا.. الجنازة في الثالثة عصر اليوم.

خمد كل شئ.

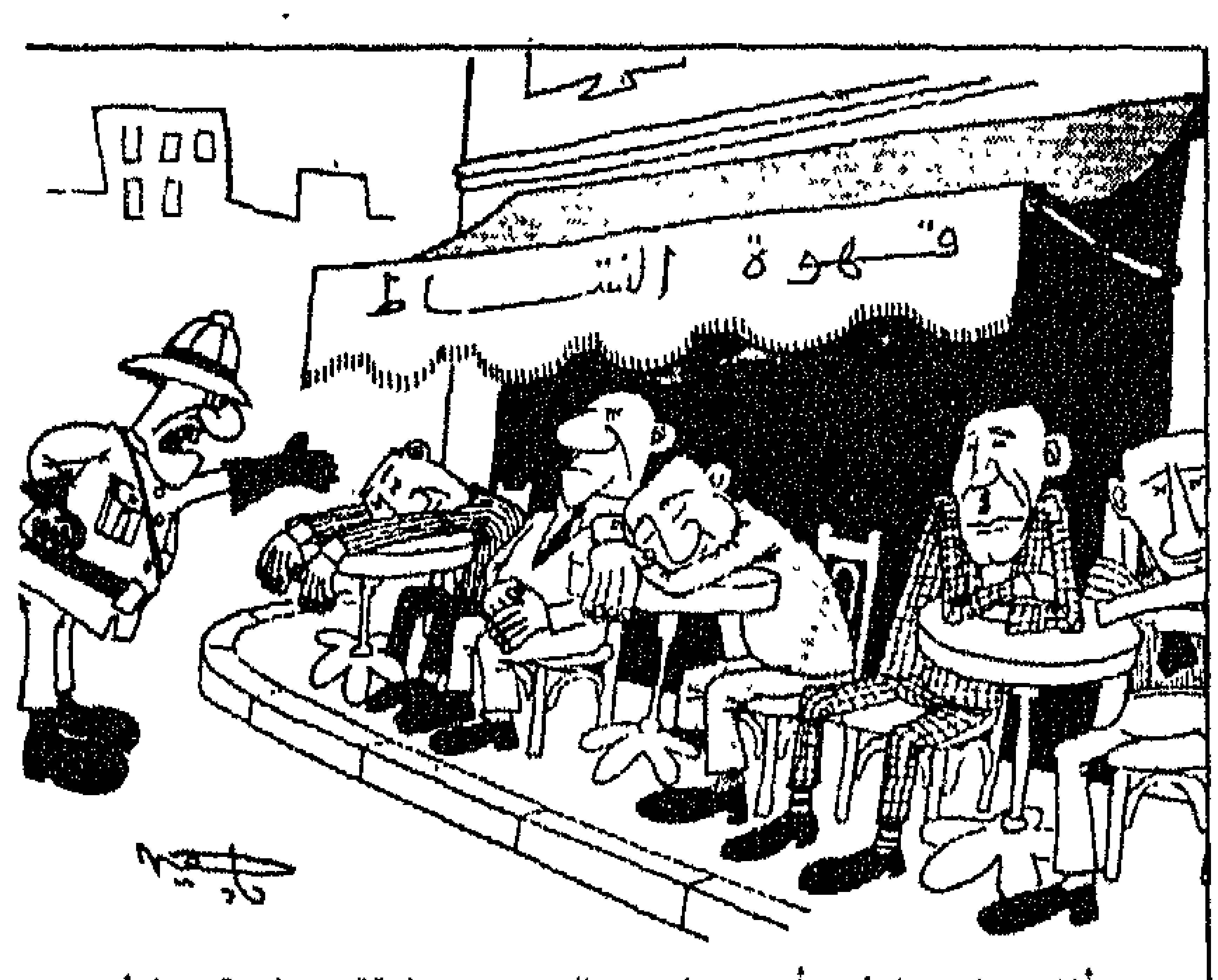
أعادت السكرتيرة التليفون مكانه... وانسحبت دون أن يشعر بها.

دقت أصابعه رقما تحفظه كالنغمة الحميمة.. ولم يزد عن كلمة«حاضر.. طبعا... تحت أمر سعادتك..»

أخفى الأوراق السوداء بورقة بيضاء نظيفة.. وكتب بنفس القلم سطورا حزينة ينعى بها الفقيد الراحل العزيز.. ويمنح الموظفين نصف يوم أجازة للتعزية... ويعلن أن أوتوبيس الشركة في انتظارهم لتشييع الجنازة.

نادى السكرتيرة... أمرها بسرعة كتابة هذا الإعلان ونسخه نشرة توزع على جميع موظفي إدارته... مع التوقيع بالعلم بالاستلام.

خفض من صوته جدا.. وأمرها بالإعلان شفهيا عن اجتماع عاجل لجميع الموظفين في تمام الثالثة اليوم.. ولا عذر لمن يغيب.



- أنتو مش عارفين أن ده شهر «المرور»؟ مابتقوموش تمروا فى الشارع ليه؟

ياترى نجحت السيدة الوقور فى إنقاذ سائق التاكسى.. أو على الأقل ضمدت جراحه؟!.. أتمنى أن أعرف.

لذلك أواظب يوميا منذ اسبوع على النزول فى نفس الموعد صباحا.. وأخترق نفس الطريق.. وأفرح جدا لو وجدت ميدان المحكمة مسدود الحلقة.. لأن الفرصة أكبر لحدوث الصدفة التى ستحدث بالتأكيد.. سأراه.. وربما بجواره نفس السيدة.. وسأعرف النتيجة من شكل حوارهما.

هذا النوع من الصدف يحدث معى كثيرا.. فلماذا يتخلف عندما أطارده؟!.

أقف فى نفس الإشارة.. أدور بعيونى على المرايا الثلاث لسيارتى.. أتلفت بوجهى لأتأكد من كل تاكسى.. أفتش عنهما.. وبعد عبور الميدان أنساهما للغد، وأمضى فى طريقى للعمل.. الطريق الذى أحفظ تفاصيل نسيجه وملامح بعض رواده.

اليوم قررت ألا أبحث عن التاكسى خوفا من أن يتملكنى ويأسرنى كالوسواس القهرى.. مالى وماله هذا السائق؟.. لأحل مشاكلى أولا.

استرحت لقرارى.. وبدأت التنفيذ.. أبعدت عنى محطة الموسيقى.. تركت نفسى لإذاعة القاهرة الكبرى.. هيا أدخلينى فى موضوعات صابحة وصداع يشغلنى عن سائق التاكسى.. بدلت

مسار سيارتي.. سأخاطر بالدخول من شارع العروبة.. أتمنى شيئا من الحظ يمنع انسداد بلعومه من هناك في بداية النفق.

الله.. مشاعري تختلف في طريق العروبة.. فعلا هنا رحابة وخضرة ونظافة.. أرى السماء.. والقطيع هنا ملامحه مختلفة.. النساء منا غنم أليف.. الشباب زهور برية في طريقها لتشرق في الجامعات وتحلم.. والرجال خليط المديرين ووحوش الغابة.. وتمرق بيننا نسانيس الميكروباص كالموسيقي التصويرية.

على قمة الكوبري ظهرت سلاسل السيارات الممتدة.. وقع المحظور.. بردت عزيمة كل السيارات.. خفتت أصوات المحركات.. لكن أغلب القطيع هادئ مستسلم كعادته في ساعات الصباح الأولى.. ممسوح الوجه.. متساهل بفعل خدر النسيم.

تتلاصق سياراتنا.. وتبدأ حوارا صامتا وخطة للهروب.. تخترق الشوارع الجانبية الى أي شريان مفتوح.. تقودني سيارتي الى مخادع الشوارع الجانبية.. منازلها القديمة نائمة في حدائق ساكنة سخية تتدلى فروعها مثقلة بزهور لا وصف لجمالها.. تمرق سيارتي ببراعة عبر أحضانها من ثعبان العروبة الخامد الى أخطبوط خط النزهة الثائر.. تعرف دروبه وما علي سوى حمايتها من المباغتات.

أتنفس أخيرا.. شارع رئيسي عريض خال.. أبتسم.. أكركر.. أصيح بصوت «لأ.. مش معقول».. إنه ميدان المحكمة.. يبتسم لي جاري بالسيارة الملاصقة .. لا يهمني ماذا يفهم ولا ماذا يقصد بابتسامته.. لمحة مني لوجهه فصلت ما بيننا لأن له وجه «نعل

حـذاء».. وجـه تدركـه كل امـرأة تعـاملت مع المتـرو فى الـذهاب لمدرسة..ومع الأوتوبيس فى الذهاب الى الجامعة.. ضحكت أكثر..آه لو يعرف شكل وجهه.

والسيـارة تدخل بى لعمق الميدان تذكرت وجوها كثيرة ألتقيـها يوميا من هذا النوع.. وتستحق شكلها.

آآه.. الميدان حلقة مسدودة.. سائقوا الميكروباص أوقفوا هدير المحركـات.. ونشبـوا ألسنتـهم فـي عسـكرى المرور الغلبان.أغلقت نوافذى وعدت الى محطة الموسيقى:. رفعت عينى للمرآة أتأمل من خلفي.. وجدته!.. خلفي مباشرة.. سائق التاكسى الذى أطارده من أسبوع.

ولن يصدق أحد.. لكنى أصدق نفسى.

السيدة الوقور هى نفسـها بجانبه.. وترتدى نفس ملابس ذلك اليـوم.. وهو مـثلهـا نفس الجـاكت الرصـاصى الرياضى والنظارة التقليد.. وهي بالبلوزة الحرير البيـضاء فى لون شعرها.. تحت جاكت أسود تريكو مع اكسسوار ذهبى خفيف.

الحقيقة لم أندهش كثيرا.

أهملت متابعة الإشارة الحمراء.. سأعرف من عواء الكلاكسات أنها تبدلت.. ركزت عليهما لأعرف النتيجة وربما الحكاية.

منذ أسبوع.. التقطت عيناى لهما صورة حية .. هو يتكلم بانفعال.. رفض وتحدى.. جسده ينتفض.. متشنجا يلقى خطابا انتحاريا.. قبضة يده فى تناغم مع مخارج الحروف تؤيدها وتضيف

تفاصيل.. يركز نظراته عليها طوال الإشارة.. يستجدى إجابة.. وبعدما انفتح الطريق ظل خلفى حتى الإشارة التالية.. نفس الاستطراد والحماس والغضب.. وعيونه تحاول اختراق عينيها وتكاد تهمل مخاطر الطريق يتوسل منها إجابة تؤيده.

له ملامح موظف يملك تاكسى لإنقاذ كرامته من التسول أو السرقة.

أما هى.. كانت هادئة جدا.. أصابع يدها اليمنى تعزف نغمات الحكمة والنصائح والالتزام.. النظام والطاعة والصبر.. لاحظت- ولم يعجبنى- أنها تتجنب النظر لوجهه رغم جلوسها الى جواره وخلو المقعد الخلفى.. تنظر أمامها بثبات وثقة يؤكدهما ميلها للبدانة.

افترقنا.. وطوال طريقى الممتد لوسط المدينة وأنا أبدل أدوارها الوظيفية.. من ناظرة مدرسة حكومية تنصحه بعدم نقل أفكاره هذه لأطفاله حماية لبراءتهم الآن.. وتنصحه بعدم قراءة جرائد المعارضة... ولا متابعة البرامج الحوارية مع المسؤلين حماية لنفسه من الهجوم ومن الوعود.. تؤكد له أن أطفاله فى أمان داخل المدارس والمناهج.. وأن وسائل الاعلام تتاجر بأمثاله لتربح.. القناعة والرضا مثلها هما النصيحة والحماية.

ومرة أتخيلها مأمورة ضرائب متمرسة.. تحسب له ماله وما عليه وتبرر خصومات الحكومة من لحم مرتبه.

ظلت قبضته تتكور.. يحفر كفه بأظافره.. جسده وتر مشدود ينتفض فى المساحة الضيقة ما بين المقعد وعجلة القيادة.. دماؤه بنزين يحترق.. وظلت صورتهما هذه حيه ناقصة تطاردنى.

وهاهما خلفي مباشرة مرة أخرى.. نفس المشهد ولكن.. المفاجأة المفرحة أنهما تبادلا الأدوار.. السيدة الوقور تغلى وينطلق العادم من أوردة وجهها ويديها.. أصابعها ترتفع لا إراديا بلمسة عصبية تعيد وتثبت النظارة الطبية مكانها.. ثم تهبط لتقمع حقيبتها من الانزلاق.. تدور على المقعد بما يسمح لها من مساحة... تحاول اختراق عيون السائق.. تسدد كلمات صارخة فى الهواء... تدق على تابلوه السيارة بدلا من مطرقة القاضى.. يرتجف شعرها المنسق ويتمرد .. تضيق بها السيارة جدا.

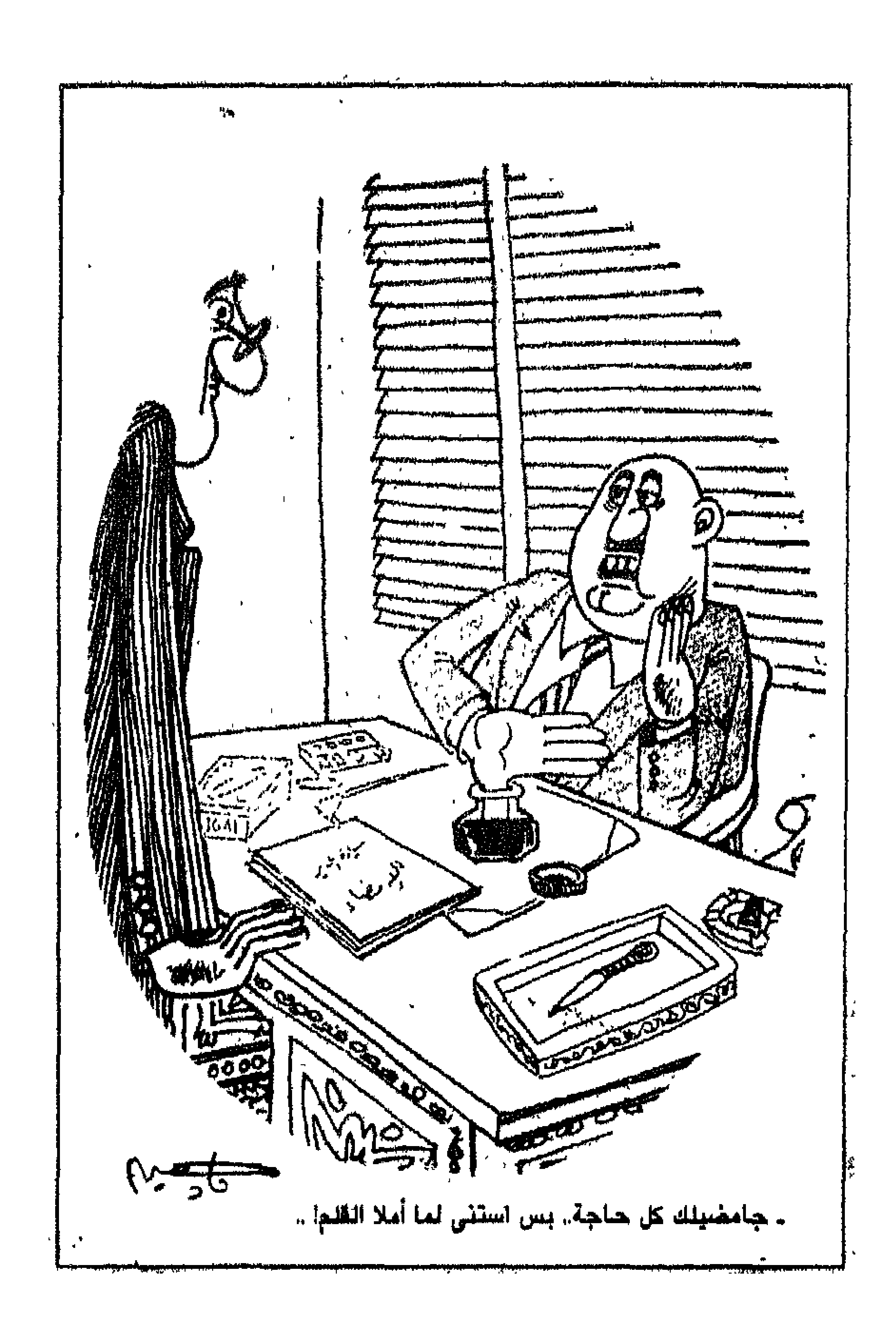
وهو.. مسترخ تماما خلف عجلة القيادة.. تدور أصابعه تتحسسها فى حركة رتيبة كأنه يلقى بما يحمله على المياه الراكده. يلهو بمتابعة دوائر التوتر التى تبدأ ضيقة خانقة.. ثم تتسع.. بعدها تتلاشى وتزول.

أرى عينيه جيدا خلف الزجاج الفالصو للنظارة.. فرحة الانتصار تغمرهما.. لا يسمع صوتها .. ولا الكلاكسات.. ولا يهمه اختناق الميدان.. ولا السحابة السوداء الخانقة المحلقة فوقه بوسع المدينة.. لن يخبر أطفاله بأى حقيقة محبطة.. ولن يدفع الضرائب بلا مقابل.. ولن يدفع رشوة للمدرسين لشرح المقرر.. ولن يدفع للمحامى أجرة نصبه.. وسوف يستمر فى كسر الإشارة طالما لا يراه القانون.. كان

يحتاج فقط أن يتأكد أنه صح.. وأنه ضحية احترام القانون.. وأن القانون سيف على رقاب موظفى القاع والفقراء فقط.. تأكد واستراح.

وتأكد أيضا أنه كان مغفلا.. وهو الآن يدرب نفسه على المبارزة.. ولن تكون بكتابة التظلمات والشكاوى وجمع الأدلة الواضحة المجموعة أصلا.. لكن المبارزة بالفهلوة أسرع وألذ وتصيب فى مقتل.. ويرن صداها.

قرأت وجهه.. فرحت لانتصاره.. لكن تملكنى قلق على مصير السيدة الوقور.. واضح أن فيروس الرفض هاجمها..أو تفجر نشاطه الكامن من عمر.. مسكينة.. هل تتحمل شراسة الفيروس فى هذا العمر... ومن يضمد جراحها!؟.



- جامضيلك كل حاجة.. بس استنى لما أملا القلم! ..

حكايات بخله نوادر لذيذه.. يتبادلها الموظفون هنا وسط ساعات العمل بدلا من نكت الصعايدة.. تجدد نشاطهم وتقرب بينهم.. تغسل إرهاق الطريق والمواصلات.. وتخفف كثيرا من ضغط الحزن الذى يجثم على أنفاسهم مع كل حكاية جديدة تطل من ملف لمواطن يحتاج مساعدة.

نوادر بخله متجددة وشيقة.. علاقته بالنقود حميمة لا يقبل فيها وسيطا ولا شريكا ولا تأجيلا ولاتهريجا.. والتهريج هو كلمة«بقشيش».. لأنه بحكم منصبه- خصوصا الآن- الجميع مجبر على خدمته مقابل الأجر الذى تدفعه المصلحة.

وقبل التوقيع على كشوف الحوافز يحصل على نسبته من كل فرد.. وهو متواضع يقبل النسبة مادية أو عينيه.. حتى لو كانت سندوتش فول من محل«آخر ساعة» فى وقت الراحة ما بين وردية الصباح والمساء... لامانع. لأنها توفر له ثمن وجبة الغداء التى تصرفها له المصلحة.. يستقبل الفول بنفس فرحة تقبله لكيلو كباب أو كرافته حرير طبيعى فرنسية الذوق.. لا يرفض مبدأ الهدية مقابل عمل.. بل يفرضه بأساليب مكشوفة.. شعاره «النبى قبل الهدية».

رغم أنه كتوم وحذر.. لكن كل من يعمل فى خدمته.. أو يدفع له ثمن كوب شاى.. يراقبه ويتجسس عليه للحصول على شرف إذاعة أحدث نوادر المدير.

وهى حديثة العهد بالمصلحة.. والمصلحة لها أكثر من فرع فى المدينة وفى عواصم الجمهورية.. هنا المركز الرئيسى.. وظفتها القوى العاملة منذ شهور وقبل ترقيته مديرا.. أول ما جاءت ظلت تسمع عبارة «إنه يقترب جداً».. كانت لا تفصله إلا حجرة السكرتارية فقط عن الحجرة التى يحلم بها ويحفر خندقا من الخدمات للوصول إليها..

ويقولون إن الحظ خدمة كثيرا.. وأخيرا أهداه رئيسا مريضا بالقلب ليمارس هو الإدارة الفعلية ويتأهب للانقضاض منذ حوالى عام على منصب أول أحلامه.

تسمع أنه طلب من زميلهم الفائز بقرعة الحج سجادة صلاة.. قالوا إنه سيدعو الله من فوقها بانتظام يوميا أن يعجل بإرسال عزرائيل لاستلام روح رئيسه.. وسيؤجل الصلاة لأن العمل عبادة.

وحكوا أنه قضى عمره كله هنا.. جاء صبيا طموحا طالبا بالسنة الأولى بالجامعة للتدريب وتدبير مصاريف الدراسة. حين كانت هى طفلة تقفز بذيل حصان على درجات سلم الحضانة.. تنظر لأعلى لترى وجوه الكبار.. وأنه لم يطلب أجازة أبدا ولا تغيب يوما.. ولم يهتم بالعودة للجامعة لاستكمال دراسته والحصول على الشهادة بعدما ثبت أقدامه جيدا... وأنهم هنا فى المصلحة تغاضوا عن الشهادة لاجتهاده واحترافه العمل والتعامل.. وأن غيابه يعطل مصالح الجمهور... والوزارة تكره الشكاوى.

عبر الخمسين بسنوات قليلة.. لكن نشاطه وحماسه للتواجد فى العمل يتضاعف !.. وفعلا هى تراه فى كل وقت تقريبا.. فى كل مكان... كل ممر وحجرة... وفى النقابة.. والاجتماعات الجانبية والمعلنة.. نادرا ما يتخلف.. عيونه رادار.. يقولون إن جهة ما تجبره وتكافئه على كتابة تقارير مستمرة عن كل شئ وكل إنسان كل لحظة.!

يشيدون بذكائه فى فصل سلوكه فى حياته الخاصة عن سلوكه فى العمل.. وهذا ما يهمها.. أن تربطها به علاقة عمل مجردة محترمة فقط.

ما كان يدهشها.. هو جرأة العمال والموظفين فى التطاول الجارح العلنى عليه إذا ما تجاوز حقا لهم.. دون عقاب منه موازٍ للفعل... تسأل لماذا؟.. فلا تحصد سوى النظرات التى تقول «غدا تعرفين بنفسك».. وكلما تخابثت لجمع معلومات أكثر عنه يكررون عبارة قصيرة «مجتهد وله علاقات» مع ابتسامة ماكرة لتجميل العبارة.

كل ما عرفته عن حياته الخاصة.. أنه كان زمان متزوجا من موظفة فى شؤون العاملين.. وأنها استقالت وطلقها فى نفس اليوم.. وهو الآن زوج لسيدة أعمال انفتاحية لها علاقات تمتد للوطن العربى.

بعد شهور من وجودها فى المصلحة رفضت مجرد الاستماع للنميمة التى تتضاعف عن حياته الخاصة وصفقاته المشبوهة.. اكتفت باللحظات الضاحكة عن نوادر بخله... وأنه مهذب معها..

وأنهـا سعيـدة بعملها هنا فى خدمة البسطاء.. تدفئها دعواتهم وتمنحها معنى جميلا للعمل وللحياة.. فقط تعلمت الحذر ... لكن يبدو أن النميمة لها شهية. شراهتها تتصاعد مع تصاعد المنصب.

المسكين.. يراقبون زواره وقراراته، ويسجلون تعليقاته ونظراته.. يتفحصون أوامر العمل.. كل مايصدر منه له أكثر من تفسير وهدف مريب.. وهو غالبا يعلم أنه مكشوف لكنه صامت مبتسم.. كأنه فعلا يحافظ على«الرادار» من أى تشويش لكتابة تقارير كاملة.

رغم تضخم مسئولياته إلا أنه لم يغير من سلوكه الوظيفى القديم.. متواجد دائما فى كل حجرة.. يعرف كل شئ عن كل واحد منهم.. لا يكتفى بتقارير أتباعه وجواسيسه.. ولا يهمه أن يسمع لفظا جارحا لأنه يملك سلطة الانتقام كاملة.. بحكم المنصب وبقوة التقارير..وأصبحت مثلهم تتكلم عنه باسم شهرته «الرادار».

فى ساعة صفا.. أكدت سكرتيرته أنها سمعت صوت الساعى يصيح فيه من داخل مكتبه المغلق بعد انصراف الموظفين.. وأن الساعى سبه ولعنه... بل وطالبه بتنفيذ وعده القديم بتحويله من ساع الى موظف باعتبار أن الخبرة أهم من الشهادة هنا... وأن الساعى «برطم» بكلام عن «السودانى» وطالبه بثمنه!!

أما حكاية السودانى فهى فعلا ظريفة.. حلف الساعى بالطلاق أن «الرادار» اعتاد كلما قرصه الجوع إرساله لشراء كيس فول سودانى «بشلن».. ويظل يراقبه من شباك حجرته المطلة على الشارع وعربة

الفول.. ليتأكد أن الفول هرم فوق الكيس... وأنه كل مرة يغلق الباب على نفسه ويلتهم نصف الفول ثم يناديه صارخا بأن الفول«رطب» ويأمره بإعادته واستعادة الشلن.

وأكد لنا الساعي أنه كان يعيد له الشلن من جيبه الخاص حرصا على كرامته من لسان البائع.. وبعدما أدرك أن «الرادار» يعرف ذلك وأنه يستغله هدد البائع بشرطة المرافق ومنعه من دخول الشارع.. لأنه لا يستفيد منه بما يستحق أن يصرف عليه.

وفي شهر الصيام.. فوجئنا بسكرتيرته بعد ارتدائها الحجاب تحكي أنها ظلت الثلاثة أشهر السابقة تدفع ثمن مشروبات ضيوفه من جيبها.. ثم طلبت نقلها من إدارته بعدما تأكدت من استغلاله لها بحيلة عجيبة.. كان يصل متأخرا عن مواعيدهم المحددة.. طبعا تستضيفهم وتطلب لهم مشروبات دون تكليف منه.. وبعدما تضخم دين البوفيه صرخ فيها بأن المكتب مكان عمل وليس استضافة وعليها تحمل مسئولية تصرفها!.. وحكايات كثيرة ختمتها بعبارة«احترسوا إنه فعلا رادار».

بعد اجتماع عاجل لمجلس الإدارة دارت حول أسبابه أقاويل كثيرة.. دخل علينا«الرادار» منتشيا كالطاووس يخبرنا بتفاصيل خبر يعتبر من أسرار المصلحة!.. وعن إدارة لا تربطنا بها نحن صغار الموظفين علاقة مباشرة.. عن عملية نصب تعرضت لها المصلحة من شاب حديث التعيين جدا.. اختلس خمسين ألف جنيه في أربعة أشهر فقط.. وجاري التحقيق معه.. وتطوع لموافاتنا بأخبار النصاب...

حتى جاء بالخبر الأخير.. إن الموظف اللص قدم استقالته وتم إغلاق ملفه.. وتعجبنا من فرحة مديرنا«الرادار». كأنه تخلص من هم كبير.

قبل أن يتحرك فريق النمامين.. جاءنا الشاب النصاب يعرفنا بنفسه.. لم يهرب أو يختفي!.. تكلم بعبارات انشائية نعرفها ونكره سماعها عن الفساد.. لأن الفاسدين هم أول من احترفوها.. قرأ وجوهنا بذكاء.. قال: أعرف ماقاله «الرادار» عنى.. لكن إليكم أولى المفاجآت.. وأخرج لنا كشفا بأسماء الزملاء الذين أرسلنا لهم مساعدات في الشدائد أو زهورا في المناسبات.. وكانت سكرتيرة «الرادار» تجمع النقود منا في أقل من ربع ساعة مع دروس من الدين في أخلاق الزمالة .. وهذا مستند بالحقيقة.. النقود صرف «الرادار» مثلها من بند العلاقات العامة وابتعلها.. أقل مساعدة كانت تزيد عن صفرين.. وأقل باقة زهور لا تقل عن مائة جنيه.. وكنا لغفلتنا بعدما نضحك عليه ننصفه ونشيد بالجانب الإنساني به !!.

حقيبة النصاب منتفخة.. وعدنا بالمزيد من المفاجآت المثيرة في الزيارات القادمة خوفا من تعطيل مصالح الجمهور!!.

أحد قدماء النمامين علق قائلا: «باعتبار أن المصالح تتصالح.. إذن هذا الفهلوى النصاب لابد اختلف مع «الرادار» لذلك يحرص كلاهما على فضح الآخر.. وانتشر فريقه لجمع تفاصيل عملية الفهلوة.. في نفس اليوم عرفنا أن هذا الموظف الفهلوى جاء بواسطة كبيرة هابطا على العلاقات العامة.. كان كثير التواجد والتركيز.. يبتلع الأوراق

والأسماء بسرعة نادرة قبل تقديمها لرئيسه المسئول عن العلاقات العامة .. لكل فروع المصلحة .. ولم نكن نعلم حتى هذه الواقعة أهمية ولا خطورة وثراء قسم ال «ع.ع» هذا.

عرف الفهلوى أن رئيس ال «ع.ع» ينهب المصلحة بأسلوب كلاب الموائد .. وهو يميز الأوراق الهامة ينتظرها كالمسعور .. يوقعها وبعد لحظة يتاجر بها .. وسط كل وليمة مستندات يقدمها الفهلوى للتوقيع كان يدس ورقة بيضاء .. يوقعها رئيسه المسعور وهو غافل .. وتتحول الورقة الى أمر صرف فورى له من الخزينة بمبالغ تتضاعف كل مرة .. وعلى فترات قصيرة ... حتى وصل ما سرقه الى خمسين ألفا.

لم يكتشف أمر الفهلوى إلا فى ميعاد الجرد السنوى .. الغريب أنه لم ينسحب قبلها أو يحاول حرق غرفة الحسابات أو سرقة المستندات حتى !!.

توقعنا أن تتم معاقبة الطرفين .. الفهلوى والمسعور .. لكن الأول أجبروه على الاستقاله، والثانى استمر فى العمل بعد إغلاق التحقيق وإثبات أنه كان ضحية حسن النية .. ولم يستبعد من منصبه حتى !!.

ولأن المستحيل يحدث أحيانا .. فقد توقف الهمس بخبر أحدث .. سقط مديرنا «الرادار» فى حجرته فاقدا النطق.

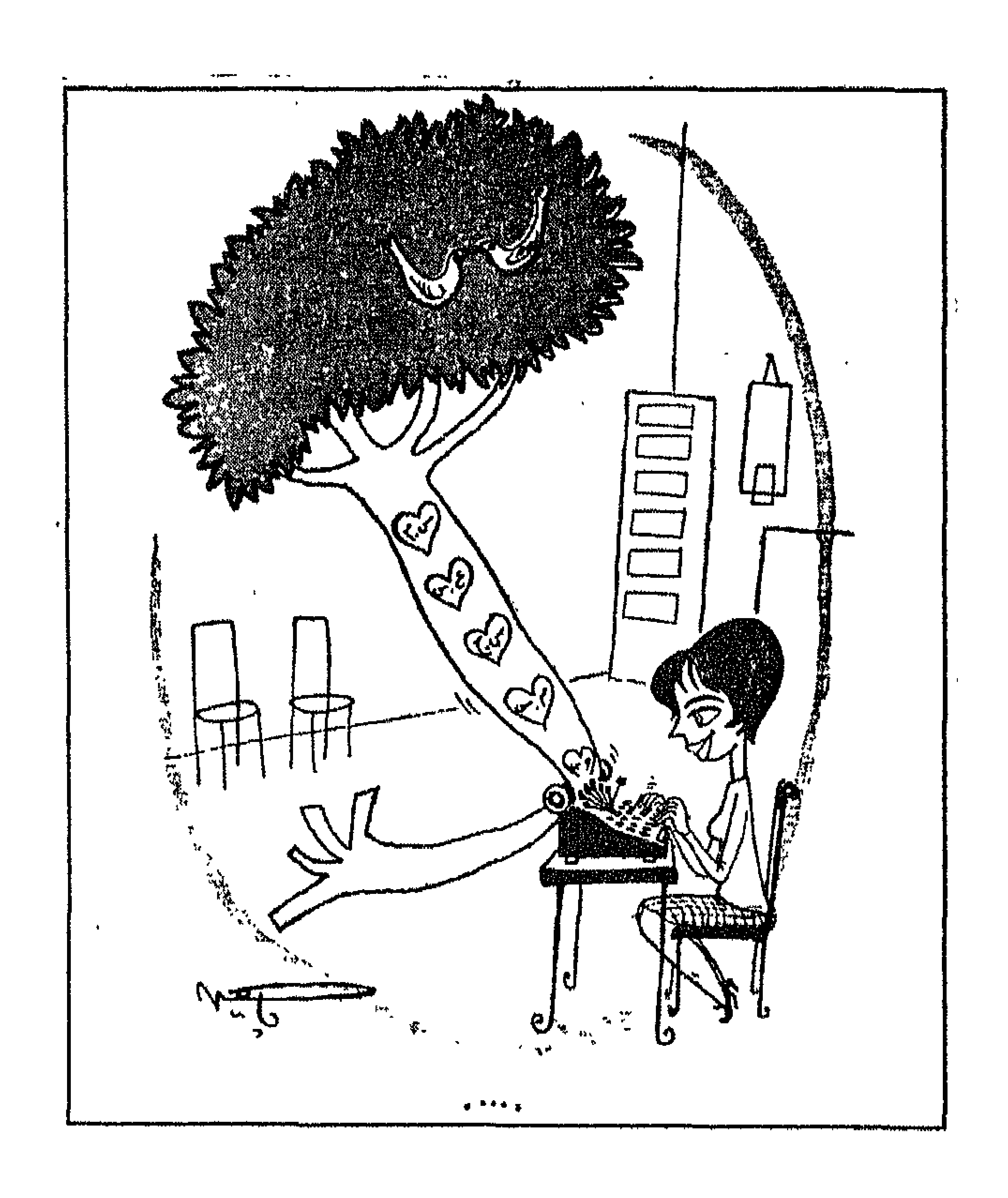
كنا فى نهاية ساعات العمل .. وأوتوبيس المصلحة يمر أمام المستشفى .. توقفنا لمجاملته .. أرشدنا الساعى الطيب الأصل الى مكانه ... وضعوه فى جناح بعدما قرروا أن ضغطه انخفض من

الإجهاد.. ولا يحتاج إلا إلى راحة فقط.. همس لنا الساعى بأنه أخبر الأطباء بالمفيد وهو حقنه بروتين حيوانى. لأن انخفاض ضغطه هو من ثقل الفول والطعمية على أمعائه.

فى طريقنا للخروج لمحنا شابا أنيقا وخلفه سائق يحمل زهورا مستوردة ثمينة ورائعة.. احتجزه الساعى بيده متضاحكا.. لا تدخل عليه بهذه الزهور.. لأنه إما سيتوقف نبضه حزنا على ثمنها أو سيأمرنى بإعادتها لمحل الزهور واستعادة أى مبلغ.

تسمرت أقدامنا فى الأرض من إجابة صاحب الزهور.. «أعرف.. ولكنها من بند العلاقات العامة». استدرنا كلنا.. إنه زميلنا الفهلوى المستقبل!!.

باختصار.. عينوه رئيسا للعلاقات العامة بفرع الإسكندرية.. وكان قادما للحصول على توقيع «الرادار» على مشروع تطوير إدارة الإسكندرية.. الذى أقره مجلس الإدارة من دقائق!!.



موظفون.. يحلمون!!

اشرق الصباح المفترج.. ورن التليفون رنين الفرح المنتظر.. لا ليس رنينا- إنما «بوروجى» صحيان وانتباه.. أبواق نصر تكبيرات العيد - هللويا من حناجر قلوب جماعية تخترق السماء إلى الله مباشرة.

ودوى الرنين الشجى منطلقا من جميع تليفونات المؤسسة- الداخلية والخارجية والسرية.. من كل الإدارات.. من جميع صالات وممرات ودهاليز وحجرات الأدوار العشرين.. وفاض.. فاض رنين الفرح.. نفد من زجاج الشبابيك المتربة دوامات تدور وتنتشر تهبط على المقهى المقابل والمكتبة تدخل جراج الأوتوبيسات حتى عمق ورشة الصيانة.. تخرج وتوقظ تليفونات العربات السوداء الخاصة.. المتراصة أمام المبنى بسائقيها.. والقادمة.. يبلغ الرنين رسالة الخلاص.

هبطت رسالة الخلاص بلسما على القلوب تقول:

«جف زيت القنديل.. أنطفأ فتيل المصباح.. تآكل وتفحم.. انتهى عهد التلوث.. لن تضاء المؤسسة بالقناديل لأن هبابها سود وجوه الجدران.. من هذه اللحظة ستضاء بأشعة الشمس لتطهر وهى تنشر النور والدفء والأمان».

ومن سماعات الأدوار.. والمكبرات التى زرعوها للتصنت بحجة الانضباط.. انطلق أول إعلان:

-«على جميع الموظفين التوجه للعيادة لغسل الرئتين وتسليك الشرايين.. وتنقية الدماء من هباب القناديل»

وتوالت بيانات النصر.. بيان عاجل:

- «الكشف على العيون إجبارى وبسرعة.. لتحديد قدرة عيون كل موظف على التعامل مع ضوء الشمس المباشر.. بعد طول معاشرة للضوء الخافت الملوث».

خرج كل البشر من المكاتب ..حتى الضيوف.. تدافعوا على السلالم.. تشابكت وجوه الموظفين بهلوسة انفعالات.. دهشة.. توجس.. انتصار.. وفى النهاية شك ونفى من رهبة لحظة تحقيق المعجزة.

إلا دور واحد فى المؤسسة كلها..الدور الثانى.. مقر المصباح.. ومكاتب جوقة الموظفين المكلفين بخدمته.. وتغذيته بالجاز.. وإضاءة فتيله يوميا.. والانتشاء من استنشاق هوائه المهبب..

حتى الرنين تمهل فى هذا الدور.. لم يعبره بسرعة.. ربما ليتأمل ملامح هؤلاء الموظفين.. لانها فعلا مختلفة عن ملامح آلاف الموظفين ساكنى المؤسسة بكل فروعها..

نظر الرنين بابتسامة مواساة.. إن النساء منهن حيات لهن وجوه ملونة.. وشعور مسترسلة متوحشة.. وزينة فجة.. وعيون كاذبة.. وهن زبونات شرهات لمحلات وعيادات التجميل.. خصوصا تجميل الأنف!!

فهل يعرف أحد الحقيقة أكثر من الرنين؟!

أما الرجال منهم.. فلا تخطئهم العين النظيفة.. وكانت الفرجة على طقوسهم اليومية لتعمير القنديل متعة نادرة المثال.. خصوصا وهم يستنشقون ما يبثه من هباب.

والغريب عن المكان لن يتوه عنهم.. حتى لو اندسوا فى المصاعد.. سيميزهم بسهولة من لون جلدهم الكالح.. وضيق نظراتهم.. وقلة كلامهم.. لأن زفيرهم المهبب يفضحهم.. يصرخ رنين الفرح.. وهو يقتحم مكاتبهم ضاربا الأبواب.. فيصطدم بهواء القبور الهارب من مكاتبهم المغلقة.

يااااه... دقائق وساعات وشهور.. عشر سنوات عاشوها داخل هذه الجحور.. يغذون القنديل ويستنشقون الهباب ويبثونه حولهم.. بمتعة ولدت فيهم هواية تحولت إلى فن فريد يصعب على الإنسان البسيط تقليده أو احتماله.. والهواية هذه حكاية.. تستحق أن تروى..

فى يوم بعيد.. فى لحظة ملل بعد الانتهاء من تعمير القنديل.. وانتفاخ أجسادهم وقلوبهم بالهباب.. تحركت أصابع أحدهم بعفوية يرسم بهباب زفيرة على الزجاج.. وبسرعة تحولت الكتابة بالهباب إلى هواية سكان الدور كله.. ومتعته الجديدة.

وبعدما هببوا كل أسطح نوافذ حجراتهم.. انتقلوا لزجاج مكاتبهم.. والتفوا للحوائط.. لأن بياضها الناصع إغراء تلويثه لا يقاوم.. وانحنوا على كل الأسطح النظيفة.. حتى الواح صناديق القمامة الخشبية هببوها.. وأخيرا هببوا وجوه بعضهم.

ولم تعد هواية بعد.. إنما موهبة واحتراف وعبقرية.. يزخرفون ببراعة وصبر فنا أسود لا مثيل له في العالم.. أو ربما موجود!!

وبعدما اختفت كل المساحات البيضاء حولهم.. خرجوا للممرات.. مروا على وجوه السعاة.. ثم تحولوا إلى تصيد كل من يتصادف مروره من الزوار.. أو من الموظفين أصحاب الحاجات والمصالح.. أو الطموحات الهبابية.

والمثير.. أن طاقة الهباب لديهم تتضاعف.. لأنها تتوالد بكثرة التفريغ.. ولأنها تضغط على أعصابهم بآلام مبرحة إذا لم تخرج من مسامهم كل ساعة زمن على الأكثر.

والمشكلة أين يبثوها؟.. لأنهم تحولوا إلى خفافيش يحتمون بمكاتبهم.. وبحدود الدور الهبابي.

جربوا أن يدخلوا مكاتب نظيفة.. فكادوا يحترقون.. واكتفوا باصطياد أية فريسة سهلة تمر على سلالم هذا الدور.. وكلما هاجمت آلام «كبت الهباب» أحدهم بقسوة.. يندفع خارجا مستميتا.. يشمشم عن فريسة في الأدوار العليا.. ويعود بقفا «برونزي».. من طول لسع الشمس لقفاه وهو منفعل بتهبيب الحوائط ساعات في غيبوبة فنه الأسود.

ولكن هذا ماض الآن.. فالرنين يدوي.. ويدوي.. والبيانات تتلاحق من السماعات:

-«على جميع ساكني الدور الهبابي إخلاؤه فورا لإعادة بياضه».

في لحظات.. وصلت فرق حاملي جرادل الطلاء الأبيض وورق الصنفرة.

أصوات كحت الحوائط موسيقى ناعمة لفالس كلاسيكى ملائكي.. تخدر قلوب عذارى الموظفين.. تتصاعد ترانيم.. تواشيح.. تسابيح.. الله الله..ما أروع البياض بعد طول هباب.

وصل المدير الجديد.. أبيض الوجه والقفا والسكرتيرة. صدحت الميكروفونات:

«انسوا الماضى واتبعونى.. لن تضاء مكاتبنا بالمصابيح استعدوا لعهد الليزر وأطباق الاستقبال الشمسية».

صدقوه لأنه أبيض.. ولأن «الصبر» طال.. وشاب.. ثم شاخ.. حتى نسوا تاريخ ميلاده وملامحه الأصلية..لم يتبق من الصبر إلا جذور عميقة ضربت فى أعماق قلوبهم وعقولهم.. وطرحت ثلاثة أجيال من الموظفين.. وقعوا عقودا يتعهدون بالصبر قبل التوقيع باستلام العمل.

والآن.. آن للفرج ان يظهر ليحيى جذور الصبر ويرويها.

شهور وأصوات كحت الحوائط مسموعة... ولكن مع كل يوم جديد تفقد إحدى نغماتها!!

فى البداية فقدت صوت الكورال الحماسى... فاختفت النغمة الأساسية القوية للكحت، وطبعا هربت نغمات الخشوع والذوبان.. فضاعت نغمة الترتيل.. ولم تجد أوتار التسابيح ما يسندها.. فانهارت..

وتبدلت سيمفونية كحت الهباب من الابتهال إلى حرب حجارة مع حديد!!

ذبلت سواعد فرق النظافة.. انهزمت وأعلنت استسلامها فى بيان هامس:

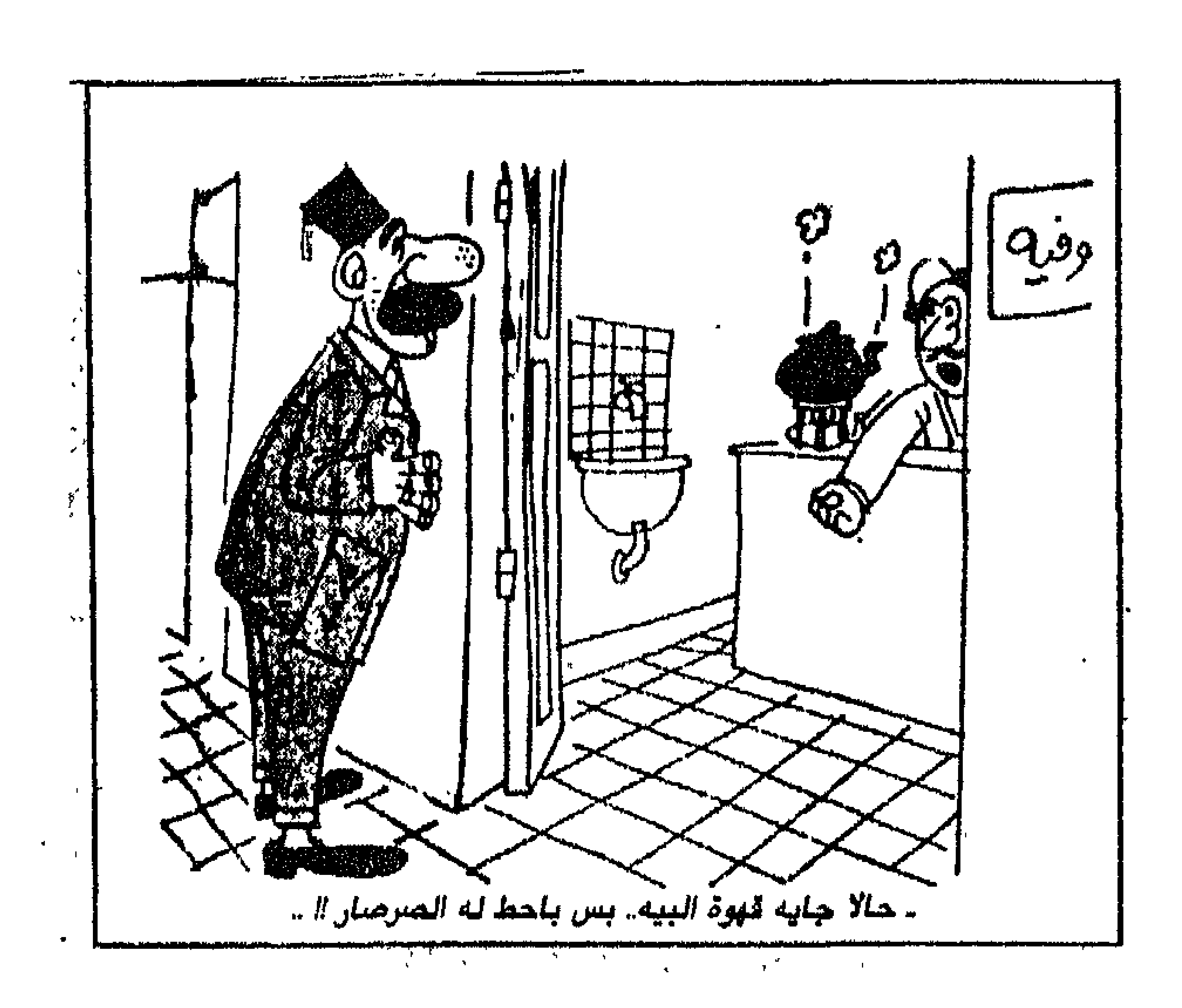
«إن الحوائط تشبعت بالهباب.. ولا علاج إلا بإخفائها خلف الواح كاملة ومتصلة وسميكة من الخشب الأصم!!».

خمد الضجيج.. والرنين.. والكحت.. انساب المرور على السلالم.. وأعلن الموظفون ميلاد الصبر الجديد باستسلام وتسليم.

وفى الصباح التالى.. وصل كل موظف وفى يده إصيص زرع فخار به طمى جاف.. وهذه المرة لم ينسوا كتابة تاريخ الميلاد.. بمجرد غرس بذرة الصبر الجديد..

وهاهم بعد شهور قليلة على ذكرى الرنين يحتفلون بحصولهم على كأس الإنتاج المتميز فى زراعة أقوى وأثرى وأروع نباتات صبار على مستوى موظفى الجمهورية.. صبار أزرق بزهور صفراء..وصبار فوشيا وبرتقالى وأحمر.. متسلق وشامخ.. متهدل وعنيد.

وإذا مررت على المؤسسة.. ستجد المرور يتوقف أمامها.. والمارة يشيرون على الصبار الغريب المتهدل على جدرانها من آخر دور فى السماء.. وحتى باب المدخل الزجاجى.



- حالا جايه قهوة البيه.. بس باحط له المرصار !! ..

المجانين الثلاثة في صيدناوي

فوجئت بنفسي أحكي حكاية تصورتها واحدة من لحظات الحياة اليومية التي تمر على الذاكرة وترحل .. ولكنها مفاجآت الصراع مع النفس.. مع العقل الإرادة.. أحيانا..

بل الحقيقة كثيرا ما اكتشفت أنني شخصين. طفل وعاقل.. إرادة ولا إرادة.. وعي ولا وعي.. كل منهما يتربص بالآخر.. وفي أغلب الأحيان تكون المبادرة للطفل واللا إرادة واللاوعي في سلوكي.. كأنهم حصان جامح مستعد للانطلاق والقفز فوق الأسوار.. بل والطيران أيضا إذا استدار العقل عنهم قليلا أو انشغل بشئ آخر لحظة.. وكأن الثلاثة اكتشفوا حقيقة أن عقلي يحتاج وقتا واستعدادا.. فظلوا ينتهزون الفرص.. ويستغلون فترة الاستعداد لمصلحتهم قبل أن يشد لجامهم.

والحكاية التي انتصروا فيها وتصورتها عبرت.. هي أنني كنت في محل صيدناوي.. في أحد الفروع الكئيبة القذرة على ناصية سوق لا هو شعبي ولا هو راق.. كنت مارة أمامه بالصدفة فقررت الدخول لأوفر على نفسي معركة ركن السيارة أمام فرع آخر نظيف.

ويبدو أن قذارة المكان المظلم مع رائحة العرق والمجاري.. مع التراب الذي يغطي البضاعة.. أيقظوا المجانين الثلاثة المتربصين للانطلاق من داخلي.. هنا غنيمة أكدها مظهر البائعة العجوز المتهالكة أكثر من المحل.. هي أقرب إلى ممرضات مستوصفات الحكومة منها إلى بائعة..

بها خمول نوبتشية بداية الليل.. تزحف داخل شبشب «زنوبة» يعلن أنها وجدته تحت سرير أحد المرضى الفقراء بعد وفاته.

أقنعني عقلي بعدم التراجع.. شجعني منطق أن البضاعة واحدة في كل أفرع القطاع العام. وأن الرفاهية غير مطلوبة الآن لأن ما أحتاجه محدد لا يتيح اختيارات.. اشتريت وسائد بيضاء جديدة لكل سرير في البيت.. في مناورة مختلفة لاستعادة صداقة النوم.. أدهشتني الوسائد.. إنها نظيفة جداً ومغلفة بعناية ببلاستك كان شفافا .نظرت إليها باستعجاب وأنا أخرج ثمنها لأشبكه بالفاتورة.. كيف حافظت على نصاعتها!

بجوار باب المحل مكتب الموظفة التي تتسلم النقود.. وبعدها منضدة استلام البضاعة تقودك للشارع.

خلف الموظفة تليفون المحل معلق على الحائط! السماعة في يد زميلها.. يمسكها كأنه يخنقها وهو يتحدث فيها.. لم يلفت نظري شيء سوى عبارات الأدب والتحيات المبالغ فيها التي يختار كلماتها بحساب لا يتناسب مع ملامح الكراهية.. ويسحب حروفها بصعوبة من بين أسنانه.. كنت أبحث عن «فكه» لأتجنب العبارة التقليدية في مثل هذه المحلات الخاوية.. وضع السماعة وأنا أضع كل النقود أمام زميلته الموظفة.. بدأت هي تعد النقود بعينيها وأصابعها وتتنهد بحسرة باردة محدثة زميلها «إيه ده كله».. أجابها بزفرة حارة «ربنا على المفترى».. ودار بينهما حوار قصير واضح أنه متكرر ومستمر هنا.

لم أهتم إلا عندما قالت تطيب خاطره «سامعة النفخ فيه عشان تتقي شره».. خرجت كل المرارة من فمه وهو يجيبها بخنوع مهين «اللى تخاف منه إما تنحني له أو تبوس إيده»..

وخرج المجانين الثلاثة.. قفزوا من داخلي.. هبوا وهجموا.. انقضوا على الموظف وعلى زميلته.. وجدتنى أصرخ فيه «لا.. لا تبوس إيده ولا تنحنى أبدا».. رد هجومى بسرعة وكأننى أعرف الطرف الآخر والحكاية كلها.. قال: «لما يكون السيف على رقبتك متتحركش ليصيبك». وأكد أن هذه حكمة ومثل معروف عندهم.

لأول مرة أنظر لوجهه.. وجه هذا الموظف.. لعينيه.. وكأننى رأيته كثيرا جدا من قبل.. أعرف النظرة والوجه بلونه الترابى البائس.. بل رأيت هذا الشخص بالتحديد فى كل مكان.. نفس الملامح! أكملت كلامى بثقة وكأننى أعلن بيان الثورة أو أذكرهم بالمبادئ الستة.. قلت «مش قادر عليه استدير.. أعطى له ظهرك. لكن إياك أن تنحنى أو تبوس الأيادى أبداً».

استيقظ عقلي.. أدركت ذلك عندما نظرت لوجه الرجل أتلقى رد فعله وأتسلم منه بضاعتي.. أفزعتنى نظرة الذل.. كأننى نزعت الشاش عن الجرح القديم المتقيح.. الصديد عاد يسيل على الكرامة وعلى القلب.. سائل ثقيل يحنى سلسلة الظهر ويجذب الرقبة لأسفل.

عقلى يدفعنى لإصلاح ما أفسدت.. يأمرنى بإعطائه رشة بنج.. واحدة من عبارات الرجاء والصبر التى استخدمها كثيراً فى الفترة

الأخيرة لأنهي بها حواراً قبل أن يلقيني في قاع البئر.. العبارات مسالمة تتركنا معلقين في الهواء ناظرين لأعلى وهذا أفضل كثيراً..

يأمرني عقلي ويرتب لي العبارات لأختار منها واحدة «يمهل ولا يهمل».. «لكل ظالم نهاية».. و... و.. لكن المجانين الثلاثة عطلوه.. سحبت البضاعة ونكست رأسي وصحت بصوت مسموع وأنا أستدير هاربة من المحل.. «إياك تنحنى ولا تبوس الأيادى أبداً أبداً».

المشكلة أن عيون الموظف الذليلة ظلت تطاردنى.. وتستقبلنى على الوسادة الجديدة حتى بعد ما غلفتها بزهور وسحاب.. وظللت أحكي ما حدث كالببغاء بمناسبة وبدون.. اشمعني هذا الرجل.. ولماذا هذه الحكاية.. رغم أننى أكرر هذا السلوك دائماً حتى تحول إلى اعتياد وعفوية.

ظللت أمر من نفس الطريق على فترات قريبة.. كلما لمحت الناصية القذرة ولافتة صيدناوى.. أفكر في الدخول وشراء أى شيء فقط لأرى وجه الموظف مرة أخيرة.. المجانين الثلاثة يصورون لى أنه كان في احتياج لسماع تشجيعي له على فرد قامته.. وأنه فعلها وبعدها رأى القبح الذى يعمل فيه.. ونجح في إضاءة المكان.. طهره ونظفه.. وأن السيدة البائسة التى باعتنى الوسائد لمسها ضياء الموظف.. ورأت حالها فاستحمت وتبدلت وأشرقت وطالبت بحقها في يونيفورم وحذاء.. وأنها الآن تزهو بنفسها وبهما مع التكييف والنظافة والإضاءة.

ولم أدخل ولا مرة.. وفي يوم ومن شدة إلحاح وجه هذا الموظف وهذا المكان وهذه الحكاية التي أحكيها بلا وعي لكل من ألتقي به.. قررت أن أطل على المكان من داخل السيارة فقط.. من بعيد.. وسوف أعرف إذا كان تبدل فعلا.. المكتب بجوار الباب.. سألمح وجه الموظف على الأقل.. أهدئ السرعة أمام المحل.. وأسرع فوراً.

أعجب ما حدث.. أن السيارة رفضت.. تهت.. فعلا تهت.. ظللت أدخل في شوارع جانبية كلها تلقيني بعيداً عن صيدناوي.. زاد تصميمي لكن زاد مثله عناد السيارة..

ارتحت للمقاومة!

ولكنني لازلت أحكي حكاية الموظف.. موظف صيدناوي الذي ابتدع مثلاً شعبياً غير موجود في تراثنا ليخفف عن نفسه بخداعها.



ـ هو أنت عملت ذنب يابابا.. علشان كده حطوك فى أودة الفيران؟

انتحار موظف عبيط

عشر سنوات.. أو عشرون.. والاستاذ «سليم» جالساً على مكتبه ينظر فقط ولا يتكلم.. والأغرب أن مرور الزمن لم يحن جسده.. ولم يسرق سواد شعره.. إنما أهدى عينيه اتساعا وعمقا.. وانسحبت حواسه الخمس واستقرت فى سوادهما.. يشعر ويثرثر ويجوع ويمشي ويرى بعينيه.. يحلم ويعترض ويبنى ويهدم بعينيه وهو جالس في مكانه صامتاً.

وكنت اعتدت المرور أمامه كل صباح فى طريقى لمكتبى.. ألمحه من فتحة باب المكتبة وأنا أدور مع منحنى السلم فى الدور الثانى.. فأصيح بتلقائية «صباح الخير». ولا أسمع صوته، إنما أرى الرد هزة رأس خفيفة.

وتمر السنوات.. كل يوم فى حياتنا يحمل مفاجآت.. وأحداثا متجددة. وبشراً من كل نوع، وأجناساً نحاورهم أو نكتب عنهم.. أو نطارد تحركاتهم.. ونعود للجريدة محملين بحكايات ومشاعر جديدة.

نخرج ونسافر ونعود.. وهو جالس فى مكانه فى المكتبة كتمثال الكاتب المصرى القديم.. حارساً لصفوف حوامل الكتب العملاقة المتوازية المثقلة.. ومن خلفها فى العمق دهاليز الأرشيف بموظفيه ودوسيهاته وفئرانه.. مشدوداً للجميع كأن بينه وبين كل كتاب وكل

ورقة حواراً لا ينقطع.. وكأنها أوراق أغصان شجرة حياته..

سألت قدامى الموظفين عن سر صمته.. أجابوني بلا مبالاه «لم نلحظ».. فعلاً هو صامت، لكننا تعودناه هكذا.. غالباً لا يرانا ولا يسمعنا..

وتعودت حالته هذه كأنها «ثوابت» بلغة الصحافة.. واكتفيت بمتابعة وجوده الدائم خلف المكتب الإيديال.. كأن جسده انصهر في قالب مع الكرسي، والتحم الكرسي بالمكتب بالأرض.. كتلة جرانيت محفورة.. تتناغم فيها صلابة المكتب مع ليونة جسده وحركة رأسه.. وظل صمته وقامته المشدودة يفرضان احتراما ورهبة على هواء المكتبة.. وملامح لم أفهمها وقتها.. هل تواضع كانت أم انكساراً!

وظللت كلما دخلت المكتبة أكرر محاولة الحوار معه وأفشل.. لأنه كان يسدل حوائط بينه وبيننا جميعاً.. وكان يبدو أنه يعرف ما جئنا نبحث عنه أو نطلبه بمجرد دخولنا المكتبة.. فيلبي الطلب بنظرات مختصرة.. ثم ينسدل الجفنان وينسحب لعالمه متوحداً مستغرقاً في قراءة مطبوعات اليوم لتصنيفها.

وفي كل مرة ألتقي به يضيف لي غموضاً جديداً في شخصيته.. وأتساءل: هل هذا الصمت هو شموخ وحكمة مثقف.. أم أنه مجرد موظف عادي صمته ملل وروتين؟.. لكن لا.. هذا ليس موظفاً مقهورا، خزائن الحياة التي ألمحها تطل من عينيه كوهج الشمس لحظة

دخولى أو خروجى من المكتبة تحمل أسراراً.

استسلمت لصمته.. واستبدلت الصياح بعبارة «صباح الخير» بابتسامة خفيفة.. وأصبح هو بالنسبة لى صورة ثابتة معلقة فى مواجهة السلم.. بروازها هو باب المكتبة.

عدت من رحلة عمل سنوية إلى باريس.. دخلت المكتبة أطلب معلومات.. فرأيت العجب.. أبا الهول يبتسم.. يقف.. يخرج من خلف مكتبه.. يتجه مباشرة لملف المعلومات الذى سوف أطلبه.. وكأنه كان ينتظرنى!

المفاجأة.. أننى لم أحاول البحث عن طرف خيط الحوار مثل المرات السابقة.. بل تكلم هو.. وباستفاضة أذهلتنى.. شلال مياه صافية من الأسئلة والمشاعر والمعلومات واللوحات الجميلة تنهمر من قلبه. بوداعة لا تتفق وهذا الوجه الجامد الذى تيبس جلده على وضع الشرود!

أربكتنى المفاجأة.. تصورته دائماً جبلاً من المعلومات يعادل ما تحتويه المكتبة والأرشيف.. وصمت الجبل هو صمت حكمة وارتياح من قرأ وتأمل وعرف الحقيقة.. وكنت قد توقفت عن محاولات تحليل صمته وشروده.

لم أتصور أبداً أن صمته كان بركانا خامداً.. قاعه قهر وسطحه أحلام.. يضيف إليها كل يوم حلما جديدا يسحبه من كتاب أو جريدة أو رسالة خارجية ملونة فى مجلة.. أو من ثرثرتنا مع بعضنا

ومع المصورين بعد عودة كل منا من مهمة صحفية مختلفة.

سألني مباشرة.. كتبت عن الحرية في كل مرة سافرت باريس.. هل صحيح أن كل إنسان هناك يتساوى في الحرية والاحترام والقيم والحقوق؟.. كتبت أنك لو رأيت رئيس مجلس إدارة أو عامل نظافة خارج مكان العمل.. في الشارع أو المترو أو المطعم لن تفرقي بينهما.. صحيح؟!

صحيح شوارعهم نظيفة.. مزروعة.. مغسولة.. وأن القانون لا يحتاج عصا.. وأن امتلاك موظف بسيط لسيارة خاصة هو حق.. وليس حلماً.. وأن العاصمة تخلو من السكان في «الويك إند» لأن الراحة حق طبيعي وأسلوب حياة للفقير وللغني.. وأن الحكومة مسئولة عن علاج وإعاشة أي إنسان يفقد عمله.. وأن المظاهرات والإضرابات حق يحميه القانون وليس مصيدة لقنص المعارضين وإبادتهم!

لم يكن يسأل.. كان يصف تفاصيل لوحة تشكيلية رائعة لإنسان حر في مدينة فاضلة.. وفي النهاية أجاب نفسه قائلا: أكيد هذا صحيح بدليل أنها مهد الفن والفنانين وحلم الصعاليك والعلماء.

هدأت ثورته وشرد قليلاً قائلا: تصدقي أنا حافظ شكل الشانزليزيه.. قوس النصر وسلاسل النور وصخب المقاهي.. وأكاد أشم رائحة الألوان ومياه نهر السين والشاورما في الأحياء القديمة.. وأرى وجوه السياح والمغتربين في سان ميشيل.. لكن.. ممكن تصفي

لى ملامح الإنسان الحر؟!.. ملامح موظف فى مكتبه مثلا؟!

الآن.. اعترف أننى أخطأت.. لأننى عاملته على أساس الصورة الشخصية التى رسمتها له.. حكيماً قانعاً زاهداً.. وأننى تسرعت فلم أقدر الموقف قبل الإسراع بالإجابة كما علمتنى مهنتى فى التعامل مع المواقف المفاجئة.. ومع الغرباء ومصادر الأخبار والأحداث.

يبدو أننى من كثرة ما رأيته يوميا تصورت أننى أعرفه جيداً.. فلم أضع حواجز أو أقنعة أو ألوان تجميل.. وألقيت بخلاصة الحقيقة كلها فى دقائق قليلة.

ضحكت لأننى مثله كنت واهمة قبل خروجى من حدود مدرسة الراهبات.. ثم حدود القاهرة.. أجبته وكأننى أدفع بدواء مُر للمريض لكى يشفى ويعش حياته بفرح.. تكلمت كثيراً كأننى وجدت من يشاركنى سذاجة الحلم ليعبر معى إلى الواقع.

يبدو أننى قلت أغلب الأشياء.. وصفت البؤساء والنصابين وعنف الجريمة وشذوذ الفنانين والعقلاء والتجار. وبشاعة العنصرية، وصفت له مشاهد الفقراء الباحثين عن بقايا الطعام فى صناديق قمامة الشوارع.. وأن الكلاب هم أكثر المخلوقات حرية فى الشارع الفرنسى.. وأن البشر يخضعون لرغبات الكلاب ويتحملون نتائجها.. وحوارى باريس القذرة.

وصفت له مشهداً يتكرر عدة مرات يومياً.. وهو هجوم قوات البوليس المفاجئ على أوكار المخدرات.. ومطاردتهم للصوص المحلات

التجارية ونشالي مترو الأنفاق.. والمحتالين المتخصصين في اصطياد السياح.. وأن هرواة العسكري الفرنسي مرعبة.. وإهداره لكرامة اللص وإهانته للشحاتين والمدمنين والعاطلين علنية ومخيفة في شراستها.

وأن الوظائف تدخل فيها الوساطة والرشاوى والمؤامرات والمصالح.. مثل أكبر دولة وأصغر جزيرة في العالم.

أجابني وكأنه يدافع عن نفسه.. ولكنك كتبت عن الغناء والرقص الحر في الشارع وفي نفق المترو.. والرسم بالطباشير الملون على أسفلت الطريق وسط الزحام.. وقبلات العشاق في السماء المفتوحة.. وحرية اللبس والتعبير.. وعن الاختيار.. كتبت كثيراً عن الحرية والاختيار والآدميين... و... و.

ولا أذكر كيف انتهى الحوار.. لكن أعتقد أنه عاد إلى انصهاره مع كرسي المكتب الإيديال.. وصمت.

مرت شهور.. أو عام.. وفي صباح عادي وأنا أدور مع منحنى سلم الدور الثاني تحت يافطة على باب المكتبة تنعي الاستاذ «سليم»!

لم أجرؤ على دخول المكتبة لأسأل عن التفاصيل.. لأنه كان هنا بالأمس. وعرفت بعدها أنه انتحر!! لماذا؟ لا أحد يعرف بالتحديد.. كلها تخمينات.. والغريب أن الجميع تقبلوا الخبر كأنه حدث متوقع أو قديم دون تفسير!

وصمت أنا أيضاً .. لازمني إحساس بالذنب وبأنني هدمت حلمه

بفأس الحقيقة.. وجرفته..

ومرت سنوات أخرى.. وبالأمس تخيلت أننى لمحت طيفه أمام المكتبة.

سألت زميلة قديمة.. هل تذكرين الاستاذ «سليم»؟.. أجابت: يااااه.. نعم أذكره.. هل تعرفين لماذا أنتحر؟ سرحت قليلاً.. حياته كانت غريبة وغامضة.. لم يصادق أو يتزوج كأنه يعد نفسه للرحيل أو لرحلة بعيدة حتى تجاوز الخمسين.. وسمعنا أنه أحب زميلة فى صمت.. وبدون مقدمات قدم لها الشبكة.. لكنها رفضته فانتحر مباشرة.. وأضافت الزميلة:

يعنى حكاية عادية.. لكن لماذا تذكريه؟

لم أقل لها إننى تذكرته لكى أجد تفاصيل نهاية حكاية الاستاذ «سليم» وأغلق عليها داخلى.

قلت لها.. أبداً.. لأننى نسيت أن أسأل وقتها لماذا انتحر؟ أو لم أعرف!

والحقيقة أننى بالأمس فقط استرحت.. النهاية العادية لإنسان انتحر لأنه أحب وفشل أكثر راحة.. فلتحمل حبيبته الذنب.. وقررت الاستمرار فى الكتابة عن الحرية والاختيار فى البلاد البعيدة.



أهلا وسهلا.. وسيادته باه كاتب كبير فى مصلحة ايه؟..

أسماء القديسين

سألت نفسي : لماذا علق اسمه بذهني مع أنني لم أعرفه؟ . . هل من كثرة تردد أخباره في كل الصحف . . قومية ومعارضة وصفراء وحمراء ودينية؟!! . . هل من تعدد ظهوره في كل قنوات التليفزيون والمؤتمرات مجانا وبالدولار!!.

أبدا . . ما أكثر هذه الصفات في العديد من الأشخاص . . وما أصعب أن تحفظ اسم من لا تعرفه من غير المسئولين عن تفاصيل حياتك اليومية . . أو مشاهير الفنانين!.

لماذا هو بالتحديد؟ . . ربما لتناقض الأخبار المنشورة عنه . . ممكن . . فقد سمعت أنه بمجرد ذكر اسمه في أي جلسة . . تدور العيون التي ستتكلم عنه باحثة في عيون الموجودين . . تسأل «عدو أم حبيب» . . إذا كانت أغلب المجموعة معه . . يدور الحديث حول علمه وتفانيه وأفكاره الخلاقة ونشاطه التطوعي الواسع وشهرته العالمية . . وإذا كانت العيون ساخرة والوجوه تشع مرارة . . يثب مؤشر البوصلة لأقصى الاتجاه المضاد . . إنه دراكيولا وفرانكشتاين وأحدب نوتردام عصري جدا . . يرتدي ملابس يوحنا المعمدان ويصرخ مثله في البرية . . لكن ليس ليحصل الأبرياء على الخلاص . . إنما لاصطياد المزيد من الضحايا السذج ذوي العلم والنوايا الحسنة - وهذا سهل - . . وأيضا لإزعاج الحيتان الصغيرة . . يقاسمها الوليمة أولا ثم يلتهمها في لحظة ثقة وغفلة!.

أضحى حوتا جوفه بلا قرار.. يتفنن في أساليب الصيد.. صفقات وعمولات واستشارات لها ملامح الأعمال الخيرية!.. تهليب وتهديد بكل الأساليب الراقية والرخيصة.. المهم هو توفر الطعام لتخدير أحشائه النهمة.

ورأيته.. لم يفاجئني شكله.. كأنني أعرفه جيدا.. ربما لأنه يشبه الحوت فعلا.. أملس رطب.. وكثير الاستدارات... رأسه.. عنقه.. كفه.. أصابعه..«كرشه»..كل شئ فيه واضح الاستدارة.. حتى عينيه وأنفه ولسانه»و«بوز حذائه»..!

المساحات المكشوفة من بشرته متماثلة اللون ما عدا كف يده.. كف عجيبة.. باطنها بلون صبغة السجائر.. وظاهرها مظلم وله صوت هو«فحيح»!

هل أسقط عليه أنا أوصافا وصفات وهمية من كثرة ما سمعت عنه.. أم أنها حقيقته!.. وماذا يهمني من معرفة حقيقة أمره!.. ولماذا هو بالذات وأنا لا عداء ولا مصلحة لي معه. لا حاليا ولا في المستقبل؟!.

إنما هناك شيء يستفزني لاقتحام عالمه.. وهو المتسبب في حدوث هذا الاستفزاز.. لأنه مثل الصرصار«نطاط الحيط».. الذي يقتحم منزلك لو تركت التليفزيون مفتوحا.. ولا يتوقف أو يتعب من إصدار هذا الصوت الصاخب اللحوح.. الذي فسره علماء الحشرات بأنه ليس صادرا من الحنجرة كما يبدو.. إنما من الحركة السريعة المتتابعة لاصطدام أجنحته ببعضها في الهواء.. كيف لا يتعب فعلا؟!

الصوت «كراك كراك» يأسرك. يكمن في أعصابك.. تعجز عن تحمله.. ثم عن سمع ماعداه.. ولايتركك إلا إذا قررت قتله.. أو قرر هو مغادرتك لإذاعة أخرى.ها هو يتكلم في مجموعة صغيرة.. أغلبها خجول وله ثقل علمي وثقافي.. يضرب بأجنحته بقوة.. يحكي عن المشروعات والاستشارات التي تطوع وقدمها تبرعا لجهات وجمعيات عالمية لإنقاذ المعذبين في الأرض.. لأنهم مركز آلامه في الحياة وهم يحتلون خلاياه الحساسة.. الفقراء قضيته وعذابه وسبب أمراضه وشقائه لأنهم ينامون في العراء.. هؤلاء المشردون التعساء يسحبون كل النوم من عيونه في أي حجرة من حجرات قصوره في العاصمة أو الساحل، وحتى في المنتجعات الشتوية.. لا يهنأ بلحظة نوم إلا بالحبوب المهدئة.. لأن هؤلاء الفقراء البائسين الصامتين سكنوا القلب والمشاعر والضمير!!.

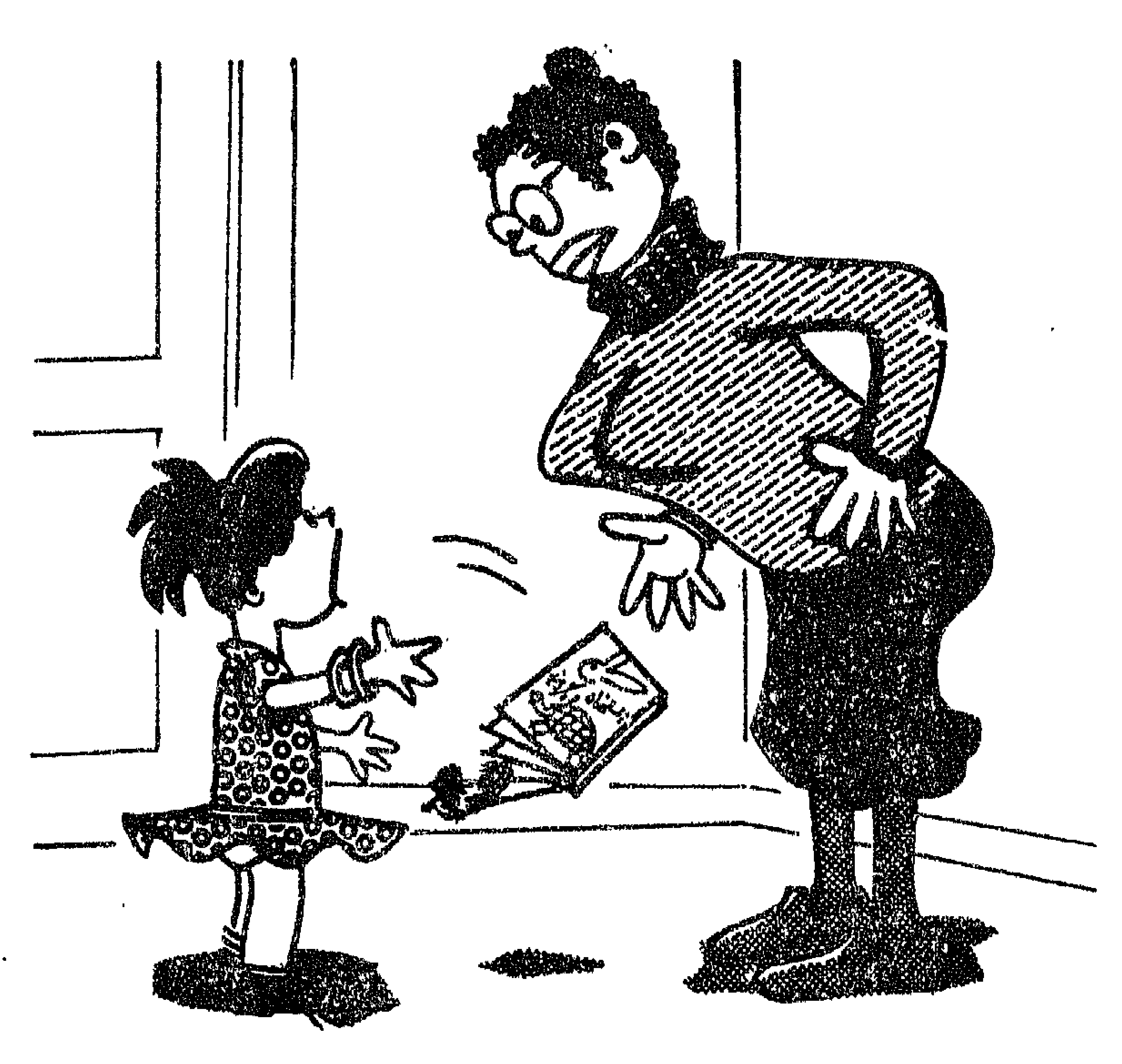
أنظر له مرة ثانية.. استدارة ظهره واختفاء رقبته المستديرة تؤكد أنه تعذب يوما.. لكن زمان!.. وليس بسبب آلام البشرية.. إنما لأن بطن الحوت التي اكتسبها من وفرة ما التهم دون«مضغ» ولاشبع تعتصره بلا رحمة إذا سكنت!.

لم أصدق سمعي والمذيع يسأله «حدثتنا طويلا عن مشاريعك وأحلامك للفقراء المشردين.. هل تحدثنا عن النتائج بعد هذا العمر.. كيف ظللهم كفاحك وأدفأتهم تضحياتك؟.

أجاب بخطابة وبلاغة وزعامة مدربة« أوجدت لهم أعمالا. لأننى أمقت التسول والمؤسسات الخيرية لغير العاجزين.. وأؤمن بالمثل الرائع (لاتقدم للجائع سمكة إنما علمه الصيد)..».

وضحك المذيع جدا.. وسأل: «وهل وفرت لهم أماكن الصيد بأحد منتجعاتك السياحية.. وهل تطوعت بأجرة المدربين!».

الفقرة الأخيرة لم تذع على الهواء لأن التيار الكهربائى هرب من مبنى التليفزيون كله.. لكننى علمت أن التيار هرب لأن المذيع طارد الحوت الصارخ فى البرية.. وحاول اصطياده -دون تصريح أو استئذان.. ولم يسجل شرف المحاولة، وآخر يوم عمل فى حياة المذيع.. إلا ظلام الاستوديو!.



ـ لأ ماعجبتنيش القصة .. فيها مغزى تربوى !

واحد لمون

من بين دعوات أمها، وخدر رائحة البخور، انطلقت مبكرة بفرح وتفاؤل.. ولكن ما إن وصل التاكسي.. وأطلت بقدميها أمام المبنى العتيق الرخامي المدخل.. حتى سرت برودة التوتر في بدنها!.. لماذا؟ تساءلت تطمئن نفسها.. وتقدمت بالعافية تسحب ابتسامة..وهي تلوم نفسها.. لماذا تتسارع دقات قلبها، وتنتفض كنبضات عقرب الثواني العملاق الوحيد ليلا في ساعة حائط بهو جدها المهيب!!

على الكنبة الجلد الباردة في غرفة السكرتير الصغيرة.. تململت.. وعادت تسوى ياقة البلوزة الحمراء الحريرية المطلة من تحت ياقة جاكيت التايور الأسود.. بأصابعها تأكدت أن خلف الياقة مرفوع بكبرياء تحت شعرها المنسدل.. وأن ضفتي الچاكت تفتحان طريقا ناعما مثلثا.. عميقا باستهتار.. وأن الخرزة الزرقاء مستقرة في منتصف العقد اللولي.

بوز حذائها الجديد.. يدق بخفة على الأرض مع نغمة أغنية خفيفة سريعة تدور في ذهنها.. تطمئن نفسها وتشجعها.. إن ماجمعته عن المدير القابع في الغرفة المغلقة أمامها.. معلومات تدعو للتفاؤل.

تسربت من خلف باب المدير مباشرة، ضحكات مجاملة باردة مبتورة.. حركت الصمت المتوتر.. وانتفض السكرتير واقفا عندما دارت أكرة باب المدير.. وانفتح ليخرج يصحبه ضيفه المهم.

لم تتأكد إذا كان المدير لمحها.. رغم أنه راح وعاد أمامها. وظل ثواني يشد بحرارة على يد ضيفه وهو يودعه بكل عبارات السلامة وطول العمر.

ثانيتان كالدهر.. ودق الجرس.. فلم يلتفت لها السكرتير وهو يشير لها بالدخول.

وهى تفتح باب المدير ببطء.. تسربت بسرعة رائحة كولونيا قوية لتصدمها.. فتجمدت أطرافها تماما.. ودوى من خلفها صوت عامل البوفيه القوى يتساءل بتريقة.. أجيب اللمون والا استنى الجرس!

زجاج المكتب الكبير جدا يلمع.. رفعت بصرها قليلا.. وصلعة المدير تلمع جدا.. هلال الشعر المنسدل على جانبى رأسه مرصوص ومصبوغ بشياكة.. وبأيد خبيرة غالية.. حولت الرمادى إلى فضى يميل للأزرق.. بشرته خمرية مشدودة.. وأمامه وردة بلدى.. حمراء وحيدة فى فازة بيضاء طويلة العنق.. المكتب شديد النظافة والترتيب.

وثب من على مكتبه بخفة تتحدى سنوات عمره الكثيرة. تقدم تجاهها قافزا نصف المسافة بحماس. ضحك بسعادة أطفال هجم على يدها يحييها بحرارة.. وأسرعت يده الأخرى الدافئة تربت على يدها.. وسألها: بردانة واللاإيه؟ فاقشعر بدنها ثم انتفضت بحدة.

لم يترك يدها المخدرة إلا بعد أن أجلسها على الفوتيل الوثير المقابل لمكتبه. تعجبت من وجود مخدات صغيرة أنيقة على المقاعد.. جلس أمامها بفرح.. بدلة زرقاء.. يزين رقبته وقميصه الناصع بكرافتة

صارخة الألوان.. جلد حذائه الغالي مرفه.. مشدود باعتداد من لم يسر إلا فوق الأرصفة النظيفة وبخطوات معدودة.. ولم ينثن وينفرد ولا مرة تحت عجلة قيادة.

بدأت تلملم بعض شجاعتها.. أثناء انهماكه المتفجر في الثرثرة عن نفسه.. لم تحتج إلى أى عبارة مما ظلت ترتبها وتعيد صياغتها.. عن دراساتها، وخبراتها وطموحاتها طوال المشوار من حلوان إلى وسط البلد.. وألقت عن صدرها هم ترديد أسماء ووظائف الوسايط التى أتى بها المعارف والجيران.

زالت الخضة.. وانطلق اللون الوردى بجرأة نحو وجنتيها.. ودارت ابتسامة الأمل فى عينيها.

استرخت بتردد على المقعد.. وأسندت ذراعيها على يدى الفوتيل.. فسألها المدير بارتياح: تشربى إيه؟.. تشجعت ورفعت قدما فوق الأخرى ورغم ضيق ذيل الجوب.. وردت برقة: اللى حضرتك هتشربه.

قبل أن يرفع اصبعه عن جرس البوفيه.. فتح«على» الباب حاملا صينية بلاستيك مدهونة بلون الفضة.. يتوسطها شوب«لمون» مضروبا فى الخلاط.. وصاح وهو يتقدم بخطى واسعة محفوظة.. ويخطف نظرة جانبية لها.. واحد ليمون مخصوص! بعد ربع ساعة: كان المدير يكتب لها إهداء على أحد مؤلفاته .. وهو مازال يثرثر.. تعجبت كيف يثرثر كالريكوردر الصاخب وهو ينتقى عبارات الإهداء!!

استدار يلتقط كتابا آخر.. فراودها خاطر أن تلتقط إحدى سماعات التليفون لتطمئن أمها.. عبر تليفون عنتر المكوجي.. زمت شفتيها وهي تتمنى في هذه اللحظة سماع عبارة أمها الملهوفة: «خيريا بنتي طمنيني».. لن تقول لها أكثر من: «زغرتي ياامه»!

اهتز الكرسي الخرزان تحت قدم المدير وهو يلتقط أقدم مؤلفاته.. كاد يسقط على جنبه.. فاندفعت تسنده.. «اسم الله عليك.. عنك انت» زقطط المدير.. وهبط مستندا بيد على كتفها البض.. قابضا على كتابه بالأخرى.. نافخا بفمه التراب العالق على سيف أوراقه الشاحب.. نفخات كالصفير الهامس. رفعت الكلفة تماما عندما خلع المدير الجاكيت.. ونصحته ألا يعلقه خلف كرسيه.. فترك لها حرية اختيار موضعه.. تحولت بحرية تقرأ أسماءمؤلفاته المرصوصة على الرفوف.. ودارت ترقيها بأصابعها: «بسم الله ماشاء الله.. دويت كام قلب في القصائد دي».

زقطط المدير تاني.. رنت ضحكاته.. وخبط الأرض بقدميه فرحا.. وساوى شعره بيده اليسرى.. وانطلق الضوء من عينيه ليطغى على نور الأباجورة الاستراس الداخلية!

رن جرس التليفون فأخرسه بلمسة ساحرة على جهاز غريب للأزرار.. دخل «على» دون استئذان واضح ليحمل كوب «اللمون» الفارغ.. فصرفه بعتاب.. وأغلق الباب من مكانه بلمسة زرار آخر.

سألها وهو حالم.. بتحبى الشعر المنثور؟.. بتقرى لمين؟ خطفت دورة سريعة بعينيها على الأرفف.. تحاول التقاط أى اسم لأى شاعر ممن يحتفظ بكتبهم لتلاغيه.. فلم تجد غير مؤلفاته. هو.. ومفردات الموسوعة الأجنبية الأنيقة!

أشاحت بيدها تخبره:

-«بصراحة ما احبش غير اللى انت بتكتبه»

كركر المدير.. وفرد كل قدميه للأمام.. فضمنت الوظيفة! انطلق يحدثها براحة عن حاسدية من الجهلة والمدعين.. والنقاد اليساريين إياهم.. وشعراء العامية الفقراء الحاقدين.. وقال لها بإخلاص:

«أنا شعارى: الحياة ابتسامة حلوة.. والناس حلوة.. والعمر قصير.. ولازم نتمتع بنعم ربنا الحلوة كل لحظة»

صرخت بفرح: «وأنا كمان»!

بيده الناعمة ذات الخاتم الذهبى ذى الفص الأسود الثمين..وقع قرار تعيينها.. وكتب بخط دقيق حريص..

«تعين سكرتيرة تحرير للصفحة الأدبية فقط.. بمرتب مبدئى ١٠٠ جنيه.. تشجيعا ومساهمة فى تنمية موهبتها الشعرية الفطرية الواعدة»



ـ انقذوا سمعة مصر من هذا المسلسل الملئ بالمناظر المخجلة .. خصوصا منظر الطبلية !

اشمعنى أنا؟

لحظات حظه السعيد فى الحياة نادرة وعجيبة.. كل مرة تبدأ وتنتهى بعلامات تعجب وبعبارة «واشمعنى أنا»!.

هو موظف بشركة.. يأكل المسؤلون عنها كل إنتاجها وأرباحها.. وفى آخر العام يوزعون الاعتذارات والوعود على الموظفين.. ويطفئون المزيد من أنوار الشركة لتخفيض الخسائر!.

رحل البعض.. واستمر هو يصدق الوعود وينتظر.. لأنه يعشق عمله.. يعشق صوت المكن وتوتر لحظات التغليف والتعليب، وفرحة خروج صناديق المنتج الطازج من البوابة الى عربات النقل.

كل شئ فى حياته متوسط.. الفرح.. الحزن.. الملابس.. والدخل.. إلا هذا الحلم والأمل بتحقيق الوعد!.

أيام كثيرة يخرج من باب البضائع ليعيد شحن نفسه بالصبر.. لكن عربات النقل مرصرصة يعلوها التراب.. سائقوها نيام داخلها.. الشئ الوحيد المستمر بكل همة وتخطيط هو السرقات.. وهو تعلم التغابى ليتجنب مصير كل من أبلغ عن سرقة من قبل.. فى انتظار يوم الأمل!.

قرأ فى الجرائد عن مليونير عصامى شاب فى بداية الثلاثينيات.. كتبوا أنه يستثمر فى مختلف المشروعات.. بعقله مغناطيس يلتقط ذرات الذهب من أكوام التراب.. أرسل اليه ورقة صغيرة كتب فيها اسم شركته ونوع الإنتاج.. واسمه ورقم تليفونه فقط.

بعد يومين قرأ في الجرائد صباحا أن المليونير اشترى الشركة..
وقرأ نداء عاجلاً له!!.

فحصه المليونير بسرعة وعمق وطلب دراساته وأحلامه كلها فورا!.. وكان جاهزا.. سلمه خطة تحقيق أرباح تعادل رأس المال لحين تحديث المكن وإعادة تأهيل العمال.

بعد ساعات فقط أضحى هو المدير التنفيذى!!

كلمات المدير صواريخ عيد لها صوت هدير المكن.. وروعة الحركة السريعة للفرز والتعبئة.. وأصوات انزلاق الصناديق الشامخة من السيور الى أفواه عربات النقل الشرهة.

وعادت الأيام!..

مضاعفة الورديات وهروب النوم.. نسيان الطعام.. اللمة والفرحة الجماعية بانتشار اسم المنتج فى السوق.. معقول؟.

انقشعت سحابات اليأس والخمول.. الأفكار الخلاقة تتسابق.. وانطلق.. لايرى، ولا يسمع ولا يتكلم إلا فى تفاصيل الحلم الذى يتحقق أمامه بسرعة كالسحر.. وبهذه السهولة!.

فى يوم عادى.. تباطأت السكرتيرة وهى تبدل الزهور على مائدة الاجتماعات أمامه.. لايدرى لماذا رفع رأسه يتابعها مع أنها تدخل وتخرج مرارا منذ شهرين دون أن يتذكر ملامحها.. ولايدرى لماذا رفع رأسه يتأملها.. بالتأكد حدث منها شىء ما وهو مستغرق فى قراءة بيان الإنتاج وتلفيات الأمس.

أما هي فأخذت تتهادى تجاهه مركزة نظراتها على وجهه.. وبقلم الشفاه كتبت على واحدة من وريقات الوردة الصفراء«بحبك».

ارتعش.. تجمدت أطرافه بملامسة أصابعها وهو يتلقف منها الوردة.

لاحظ وهي خارجة أنها رائعة الجمال.. وأنها مكتملة وبالغة البراءة.. ولمدة أسبوع ظل يكتشف بسهولة مكان الوردة الجديدة بالمكتب وعليها الكلمة الساحرة«بحبك».. يتسلمها بوجل ويخبئها في درج المكتب فورا.. وفي نهاية اليوم يضم الوردة الى المجموعة الناعمة الهامسة.. ويخفيها عن العيون.

خفق قلبه.. وبدأ يتأمل ملامحه في المرأة«طبعا ممكن يتحب» ارتبك.. وبدأ يتساهل مع الموظفين.. يتراخى ويتنازل.. ويستمتع بسماع ملاحظاتها ونصائحها وتعليقاتها على المرءوسين.

نما لديه اشتياق الى المزيد منها.. اشتياق تصور أنه نسيه من زمان!.

اخترع اجتماعا بعد ساعات العمل بالمدينة الصناعية.. وجودها معه واصطحابه لها في العربة أمر طبيعي.. وكافأه القدر بمرض مفاجئ للسائق. وهو يذوب ويتماسك جلست بجواره تتأمله.. وبمجرد نفاذه من اختناق المرور غردت له بكلام الحب كله مع صوت أم كلثوم.. وبادرته بعبارة رائعة:«لا أريد منك شيئا.. اتركني أحبك فقط.. أعشقك في القمصان الزرقاء بكل درجاتها.. أعشق حركة يدك وأنت توقع باسمك على الأوراق.. ثقة ورجولة وكبرياء..

وأعشق ابتسامتك التى لاتنطلق ضحكة صريحة أبدا إلا مع تليفون حفيدك».

وقالت له: لاتفعل شيئا.. كن موجودا فقط!.. أعرف أنك دون جوان قديم ولا تعرف إنك مازلت.

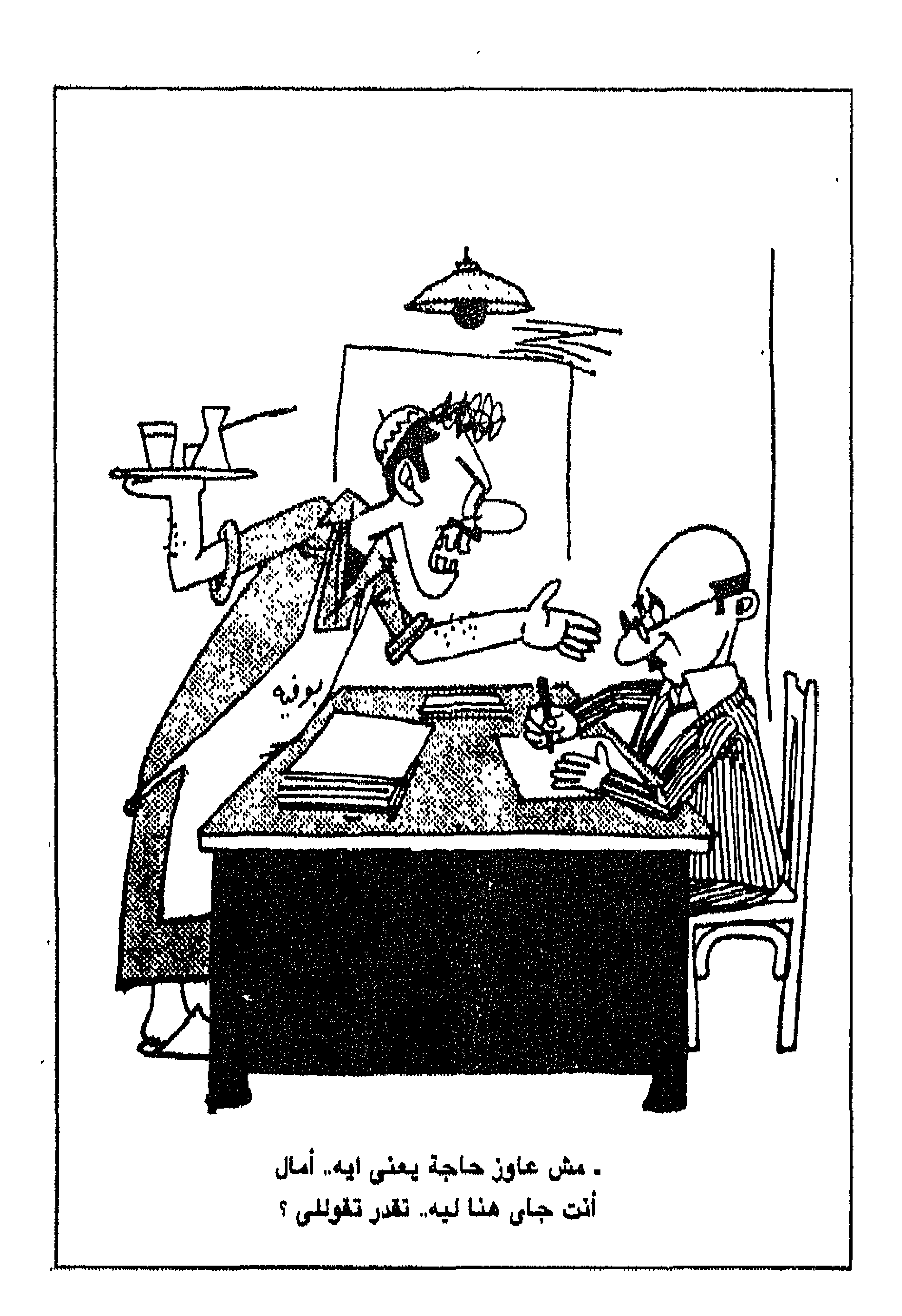
أصبح لا يرتدى إلا القمصان الزرقاء.. ويتمادى فى التوقيع على الأوراق أمامها دون استيعاب.. لأنها تغرد وهى تلخص له المضمون.

وبدأت خسائر الشركة..«شرد» وهبطت عليه سحابات غريبة وهو يوقع أمامها أول خطاب اعتذارات ووعود للمليونير.. كان يحلم باختفاء الموظفين كلهم .. وبتوقف ضجيج المكن ورائحة صناديق الإنتاج الخانقة.. ليتشبع بوجودها ونسيمها وصوتها هى فقط!.

وصل الشركة فى الصباح ليجد قرارا بنقله الى مكتبه القديم.. صاح بصوت مرتفع«اشمعنى أنا».

لكنه ارتاح لزوال المسئولية.. تكفيه هى.

ولكنها كانت هناك.. تحتفل بعودة المدير السابق الشاب عاشق الزهور الصفراء.



ـ مش عاوز حاجة يعني ايه.. أمال
أنت جاى هنا ليه.. تقدر تقوللى ؟

أنا هابى بتاع البوفيه!

لماذا حكايات الغلابة لها صوت الناى؟ حتى لو كانت الحكاية نكتة.. مثل هذه.

يومان والأيادى تدفعه في كل جزء من جسده.. من لحظة مفاجاة القبض عليه في بوفيه المصلحة.. إلى «حشره» في الحجز يستنشق هواء المجارى مع المشبوهين والسوابق.. إلى إلقائه أمام وكيل النيابة.

● اسمك أيه؟

■ «هابى» سعادتك لا مؤخذه.. هابى بتاع البوفيه.. مشهور قوى..و..

● هابى!! يابن ال.. اسمك الحقيقى؟

■ الاسم اللى يعجب سعادتك لا مؤخذه.. إنما هو كان«سيد» زمان يوم ما دخلت المصلحة «صبى بوفيه».. وبعدما اشتهرت.. رئيس المصلحة امر بتغييره إلى «على».. وعشت «على» سنين.. لكن يوم خروج رئيس المصلحة للمعاش غيرته زى الزمن.. سميت نفسى«هابى» سعادتك لامؤخذه.. علسان الزباين الموظفين ينادونى بفرح.. وطلباتهم تزيد وابقى غنى.

لم يضحك او حتى يبتسم أحد.. الوجوه صارمة مخيفة.. الكل غرباء متربصون.. أدرك «هابى» أن المصيبة جد.. وحل عليه إرهاق يقظة«وبهدلة» وذهول الثمانى والعشرين ساعة الماضية.. الآن فقط ارتجف.. وجاهد ليخرج صوته جريئا يسأل:

● أنا تهمنى أيه سعادتك ؟

■ «التخريب»

● تخريب إيه سعادتك لا مؤاخده.. ده انا «هابى» بتاع البوفيه.. الشاى شاى.. والسكر سكر.. والزباين كلهم عايشين.. فهمونى انا هنا ليه لا مؤاخذة!!

سدد له وكيل النيابة نظرة مفروض أن تخرسه.. لكنه ظل يضحك عاجزا عن السيطرة على نفسه.. وعلى تلقائية مشاعر الاستهزاء والسخرية.. التى اكتسبها من تراكم الظلم والعجز طول عمره.

احتار.. ارتبك.. لكن فهم أن وكيل النيابة مرتبك مثله.. لأن «حال» هابى وملفه الأبيض لا يتناسب مع خطورة التهمة.

فهمها هابى من طول عشرته لموظفى المصلحة.. ومراقبة تصرفاتهم وأحقادهم.. وأحلامهم.. وعلاقات أغلبهم المزدوجة منذ ثلاثين عاما.

والحقيقة.. أن الموقف يثير السخرية فعلا.

فليس هابى أكثر من فيلسوف غلبان كفقراء الهند.. أحلامه كلها كلام.. وحواديت ساخرة.. وهو يعرف الكثير جدا من الأخبار والأسرار وحقيقة العلاقات والمصالح هنا.. بحكم تواجده منذ شروق الشمس إلى ما بعد غروبها يوميا.. ولكنه متفرج لا يتورط.. فقط يستمتع بألعاب سيرك المصلحة.. وتبدل الأدوار والأقنعة على الوجوه.

تعرف انه قادم.. ليس من صوت اقدامه، لكن من إزعاج سرعة دوران معلقة الشاى.. تذيب السكر ومرارة الأيام.

وفى الأيام الأخيرة.. كان على وجهه ذهول يشبه الصدمه.. وكانت الملعقة تتخبط فى جدران أكوابه بحذر غريب عليه.

ورغم السنين.. مازالت مشيته سريعة.. هامشية كحياته.. وهو يتفاخر بأنه الوحيد الذى لم يتغير فى المصلحة.. لكن مشكلته التى تعرفها عنه.. هى أنه لم يتعلم الحذر والسياسة أبدا.. تصريحاته وتعليقاته فى المكاتب المكيفة.. هى نفسها فى مكاتب الأرشيف.. ومكاتب الجواسيس.. ومكاتب أولياء الله الصالحين إياهم!

لكنه الآن أمام النيابة.. سأله وكيل النيابة فجأة

● «بتعمل شاى لمين ياوله؟»

■ للكل سعادتك لا مؤاخذة.. من الغفير للمدير.. إلا البهوات اللى لا مؤاخذه جايبين «سبرتاية»

● بتعمل شاى للأستاذ فلان وفلان ياوله؟.

■ ولا واحد منهم يقدر يفلت من شاى هابى لامؤاخذة سعادتك.. وضحك على نفسه وحده أيضا!!

● شاى سايب واللا بفتلة ياواد؟

■ شاى «هابى» المخصوص يابيه.. توليفة خشب مدهونة «جملكة» تعدل دماغهم وتكيفهم آخر تمام سعادتك لا مؤاخذة يابيه.

● خلاص.. اخرس.

ويبدأ وكيل النيابة يملى «الأمين» باقى المحضر.

■ واعترف المتهم أنه يخلط شاى التموين بمواد خشبية، وأنواع من الدهان، بهدف تخريب عقولهم، والتأثير على تفكيرهم، مما جعلهم يعملون ضد سياسة الدولة، وتأتى قراراتهم تخريبية، مما يهدد أمن الدولة وأمانها.

صرخ هابى: غلط سعادتك لا مؤخذاة، فسقط كف عريض على قفاه طير النظارة.. وسد أذنه. صوت بارد يقول له.. غلط إيه ياحمار.. اتعدل واوزن كلامك يا...

■ لا.. لا.. لا.. انت اللى توزن كلامي أنا.. سعادتك لا مؤخذة. لأنك حامل ميزان العدل، والعدل أساس الملك.. والملك لله.. يبقى أخاف من إيه.. وأنا مجرد «هابي» بتاع البوفيه.. والشاى بتاعى تموين.. يعنى الحكومة تستورده وأنا أسقيه لموظفى الحكومة.. فين الغلط سعادتك!!

بعد أسبوع.. كان «هابى» هو مسئول البوفية للمساجين المخصوص.. وانتشرت إشاعة بأن المأمور وضابط «نوباتشية» الليل لا يعدل مزاجهم إلا شاى «هابى» (أبو فتلة)، الذى توقف عن تقليب السكر فيه، أصبح يقدمه فى طبق فوق الكوب.. وبجواره المعلقة لامعة وصامتة.

ويضحكون منه كلما اقترب من أى إنسان.. لأنهم يعرفون إنه سيهمس فى إذنه بالجملة الوحيدة التى لا يتوقف عن ترديدها:

■ أنا «هابى» بتاع البوفيه.. ما تعرفش تهمتى إيه.. لا مؤاخذة!!

وفى الليل.. تؤنسه موسيقى الناى.



- كويسين الشهادات بتوعك.. أحنا اخترنا دى !! ..

يعامل معاملة الأطفال !

إن وجود «سالم عبد الهادى» في المصلحة.. خطر على نفسه وعلى الآخرين.. وترى اللجنة ضرورة عزله عن الموظفين، وعن التعامل مع الجمهور.. لحين انتهاء إجراءات إيداعه مستشفى للعلاج النفسي.. مع مراقبة حالته لمدة لا تقل عن ٢١ يوما.

«كما توصي اللجنة الطبية بإعادة أوراق «سالم عبد الهادى – ٤٠ عاما» – الى القوى العاملة لتعيينه في مصلحة لا علاقة لها «بالخدمات» أو «بالصرف الصحي» من بعيد أو قريب.

وفي غرفة متصدعة ضيقة.. ترتعد برداً وفقراً وإهمالاً.. لون فراشها الطبي بلون تراب حوائطها العفنة الأركان.. وضع «سالم عبد الهادى» منديله النظيف فوق قاعدة الكرسي الحديد.. وجلس متوتراً على حافته.. رأسه ثابت، مصلوب في مواجهة الطبيب، وعيناه تدوران دورات فجائية حذرة.. تستكشف أو تبحث عن شيء ما.

يستكين لاكتشاف وجود حوض المياه بالغرفة.. الصوت الرتيب لقطرات المياه ينزل برداً وسلاماً على نفسه..

الطبيب في مواجهته تماماً.. منحنياً على الأوراق، صلعته نظيفة.. مكتبه الصاج أغلب طلائه متآكل.. ولكن ليس له رائحة.. راوده خاطر أنه ربما تكون الرائحة مختبئة في الأدراج.

لم يتكلم الطبيب.. فقط نظر له بتركيز وود.. فانطلق يحكى ويسترسل كأنه فى أحضان أمه الحنون.. عن مشروع تخرجه بتفوق من كلية الهندسة.. كان نموذجاً لقرية على ضفاف النهر.. قرية تزرع الزهور فقط.. وبها مصنع بسيط نظيف للعطور.. كل سكانها يزرعون الزهور ويصنعون العطور فقط.. القرية مكتملة تماماً، لا ينقصها شيء.. حتى الفنان العجوز الصافى النفس له منزل خشبى هناك.. ومدفأة تتغذى شتاء بأشجار الورد، يزوره أطفال القرية فى أى وقت يحلو لهم، لاقتناء الأشكال العجيبة لزجاجات العطر.. التى يصنعها أمامهم فى سرعة وفرحة ومهارة البهلوانات.. الزجاج ينصهر ويتشكل ويتلون ويتجمد فى لحظات، أشبه برحلة العجائب الساحرة.

يسترخى «سالم عبد الهادى» على المقعد.. ويبادله الطبيب الاسترخاء.. تنفتح شهيته أكثر فيتمادى ويحكى عن المنحل الصغير فى الطرف الآخر للقرية.. والملاعب.. وصيد السمك.. و..

وفجأة ينتفض «سالم»، يتجه كالمجذوب إلى حوض المياه.. يخرج من جيبه علبة صغيرة بها صابونة بيضاء.. يغسل رأس الصنبور أولاً.. يدعكه.. ثم يبدأ بدعك يديه برغاوى كثيفة.. ويشطفها ويعاود الغسيل والشطف مرات عديدة بعصبية وتركيز.. ولا ينتهى إلا بانتشار رائحة الليمون القوية للصابونة واختراقها لكل مسامه.

يتنفس بارتياح ويعود للكرسي.. كالعائد من الماضي الجميل، ينكمش ويتبدل صوته من الحلم إلى الذل.. صوت دامع وعينان تتوسلان، وعبارة يكررها بلهفة المحتاج.. ممكن تساعدني.. ممكن !

ويجيبه الطبيب بصدق:

نحدد المشكلة وندرس الحلول ونختار أفضلها.

يعاوده التفاول:

«أريد قراراً جمهورياً بعزل مصلحة الصرف الصحي التي أعمل بها إلى خارج نطاق العمران.. في قلب الصحراء.. وأن تبنى من الطوب العازل للرائحة.. لأنها أصبحت قنبلة تلوث موقوتة.. وألا يعمل بها إلا الخارجون على القانون كبدائل للسجون».

● ولماذا؟

يعاود غسيل يديه المفاجئ بنفس التفاصيل ثم يعود ليهمس، وعيناه تدوران في الغرفة بتوجس.. حتى ننقذ الأجيال القادمة من التسمم بالعفن!

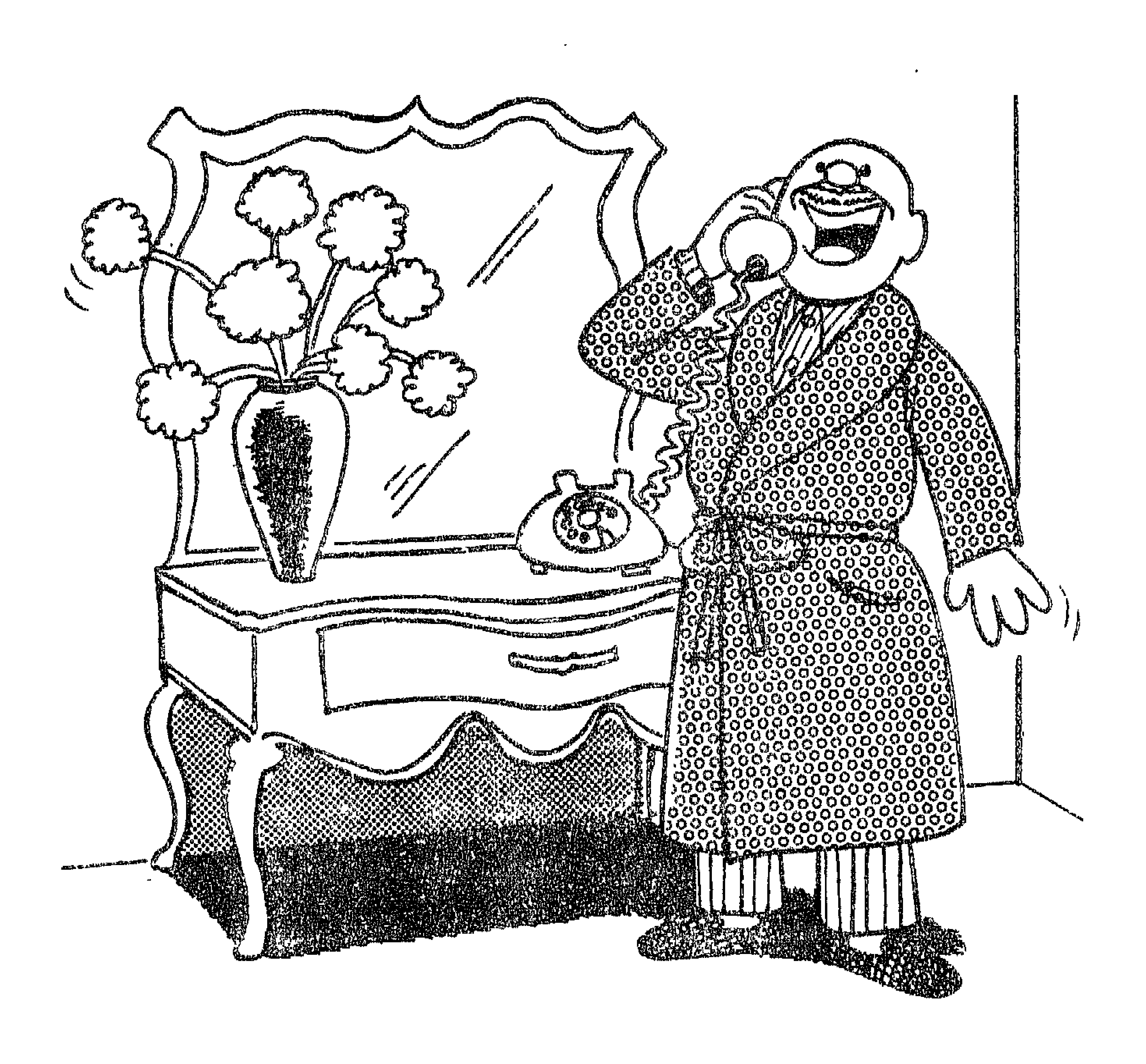
بنفس الجدية يهمس الطبيب.. وكيف؟! اذهب للمصلحة وأنت تعرف.. وضروري أن تحذر.. تسلح بكمامة وصابونة.. لأنك لن تحتمل الرائحة هناك. فالجدران تشبعت مثل أغلب الموظفين برائحة الصرف الصحي.. هل تصدق أنني أميزهم في أي مكان خارج المصلحة من رائحتهم.. رائحتهم خطيرة.. تنتشر ثم تلتصق ومحظوظ من ينجو منها.

القوى العاملة ألقتنى هناك.. رغم أننى أول دفعتى بالهندسة.. وحاصل على جوائز الامتياز عن مشروع التخرج.

لم أتصور أبداً أن أجسادهم تشربت بسموم المصلحة، والغريب الذى يكاد يفقدنى عقلى.. أنهم يتبادلون الأحضان بارتياح.

أنا أريد الانتقال إلى مكان ليس به صرف صحى.. التلوث يخنقنى.. يعيد الطبيب النظر فى الأوراق.. ويعيد التأكد من البيانات.. إن «سالم عبد الهادى» لم يدخل كلية الهندسة أبداً.. إنما هو خريج إعلام.. ولم يعمل يوما فى مصلحة الصرف الصحى!

يوقع الطبيب على الأوراق «دخول» ويكتب عبارة واحدة فقط.. «يعامل معاملة الأطفال».



ـــ غيرتم نمرة تليفونى بقت ٧٤٣٥٢١ .. عظيم .. واسمى من فضلك بقى إيه ؟

عيون تشم.. وتنم!

معقول!! عشرون عاما مرت علينا ونحن نلتقي في نفس الحجرة! وجوه حبيبة رحلت أو غادرتنا.. ووجوه جديدة احتلت مكاتبها في نفس اليوم.. يااااه.. عمر مضى.. ياترى ما هي ملامحنا الآن؟ ماذا اكتسبنا.. وماذا فقدنا؟

كم مرة صعدنا ذات سلالم المصلحة في الثامنة صباحاً.. وهبطناها في الثانية والنصف. وسط هرج الإفراج.. ندخل بوجوه طازجة تتمتم «يافتاح ياعليم».. نحيي حراس الأمن والاستعلامات.. والبصاصين.. نستدير يمينا نتبادل أول قلم لنوقع حضور.. عايشين.. ونصطف طابورا أمام المصعد، والشباب منا يتسلقون السلالم. ولكن هذا اليوم مختلف.. اليوم هو أحد أيام النميمة اللذيذة.. بعد ساعات يتبدل رئيس المصلحة.. ويصبح «سابقاً».

أهم شخصية اليوم اليوم هو «إمام» و«إمام» هو أظرف بصاص عاشرناه في المصلحة.. من اللحظة الأولى لوصوله هنا.. احتل كرسي «الساعي الخاص».. رغم أقدمية باقي السعاة وثقل أبدانهم.. وتمرد «كروشهم» على سجن اليونيفورم.

ركزنا أبصارنا على عيني «إمام» اللتين لم أر لهما مثيلاً أبداً.. سبحان الله.. في عينيه الضاحكتين اختصار للحواس الخمس كلها.. هما يريان.. ويشعران.. ويتذوقان.. ويشمان.. وينمان بكل شيء أيضاً!

إنه البصاص النموذجي الذى يحلم به أى رئيس مصلحة من نوعية رئيسنا.. لأنه بالإضافة لعينيه المعجزتين.. جناء «خام» وجاهلا وفقيرا.. لا يملك إلا موهبة الطاعة العمياء لصاحب لقمة العيش.. إلا إذا اضطرته الظروف وقد كانت كثيرة.. أى أنه نذل بحكم الوظيفة فقط.

«إمام».. متوسط القامة.. نحيل.. خفيف الوزن والروح.. مقطوع اللسان مع الموظفين.. خصوصاً البخلاء منهم.. وهو مدهش.. له صفات الكلب والأرنب و«التيس» في ساعات العمل الرسمية.

وباختصار.. هو «عينان» بارزتان من جوف جمجمة معلقة بخيط رفيع على هيكل، له ساقان فارعتان.. يعطيك إحساساً من أول نظرة.. أنه خلق لكى يرصد حركة تواجد الموظفين فقط.. لا يستعمل سوى حاسة البصر.. لا يتكلم.. وإذا تكلم تلعثم.. ينصت أو يتلصص ببهجة طفولية تجبرنا على تقبله بحب!!

أما المفاجأة في شخصية «إمام» وللأسف اكتشفناها بعد فوات الأوان.. فهى أن له «كرامة»! و«معلنة»!

ظهرت هذه الكرامة عندما اختلف مع رئيس المصلحة السابق.. وسمعنا صوته الغاضب.. بل رآه بعضنا «يشوط» كرسى الحراسة بقدميه.. ويندفع خارج المصلحة.. لأن مدير المستخدمين أعلنه بقرار إجبارى من «لائحة السعاة» أن يحلق شنبه.. لأن الشنب ليس للسعاة!

لم ننس الموقف.. وكان قبل خروج رئيسنا على المعاش بأسبوع.

«إمام» مشغول جداً اليوم. الإرهاق والعرق أخفيا وجهه.. فهو مطالب بعمله اليومى فى التلصص علينا.. وأيضا على حجرة رئيسنا الذى أصبح «سابقاً» حالاً. لينقل أخباره لنا وللمدير الجديد.

القلق ينهشه على مصيره بعد رحيل رئيسه.. بيده ورقة تطلب الاستمرار فى العمل.. لكن باقى السعاة كلهم أعداؤه.. لأن المدير السابق أعلنه رئيساً لهم فور وصوله.. دون اعتبار لكفاءة أو أقدمية أو حتى «عشرة» وعندما عاتبوه صرخ فيهم.. وعايرهم بفسادهم.. أما عندما بدأوا فى نصب الكمائن لإمام.. وضاق بمؤامراتهم وإهاناتهم العلنية.. اضطر لإخراج بطاقته الشخصية.. وعرفوا أنه «بلديات» المدير.. فخرسوا تماماً.. واستمتع هو بعمله.. حتى جاءت لحظة معاش مديره!!

دخل علينا يمارس مهمة آخر يوم.. عرف أن الموظفين اشتروا طبقاً من الفضة هدية للرئيس الراحل.. قمراً يضىء لياليه الطويلة القادمة.. وعرف أنهم اشتروا له مصحفاً، لأنه شاب، طريق التوبة مازال أمامه.

أصابته صدمة واضحة من الهدية.. ومن سذاجة الموظفين.. فى لحظة.. أطلق نظرة خبيرة حدد بها صاحب الفكرة من وسط المكتب الذى يضم ثلاثين موظفاً.. عاجلها بنظرة أخرى صريحة تؤكد لنا.. أن الوظيفة «تعجبه».. وأن العمل «عبادة».. وأنه لن يرحل.. فقط.. سيحلق شنبه يومياً!!



ـ اكتبهم.. مادام ماجالناش تبليغ عن وفاتهم يبقوا أحياء!!

براغيث ألوان!

تسلمت عملها الجديد بانشراح.. كل شيء يدعو للتفاؤل.. خبرتها في العمل والتعامل.. استعدادها المتوثب للتغيير.. وإرادة الخروج من الدائرة الضيقة للوجوه الثابتة بقبحها وجمالها.. فلقد وصل ترمومتر الثبات لمنتهاه.. نفس الأشرار بأحقادهم ووجوههم الصدئة.. نفس الطيبين بسلبيتهم وأجفانهم النائمة.. ونفس الموهوبين بإحباطاتهم وغليانهم.. وهؤلاء مشكلتها.

لأنهم كحلل الضغط «البرستو» ليس أسهل من أخماد صفيرها.. بنزع الصفارة والتبريد إلى حين بكلمة واحدة خادعة.

وهي كل مشكلتها «هجمات البراغيث».. لأن دمها لا يقبل حشرة البرغوت، ولأنها دائماً من يشعر بوجود برغوت أو برغوتة.. تصرخ وتعجز عن الاستمرار في العمل وسط استنكار المحيطين.. ليس لسلوك البراغيث وإنما لشدة انفعالها!!

والآن ترمومتر احتمالها اختنق.. إما ينفجر أو يتراجع لتبدأ من جديد.. وهذا ما اختارته. زمان.. فور تخرجها من الجامعة وتسلمها العمل وسط هذا الحشد المتنافر.. لم تكن تعرف من الحشرات سوى «الناموس». وأنه ينتظر في الصيف مع ارتفاع الرطوبة وزيادة وليمة الغذاء الآدمية من اللحم العاري.. وكانت تراه وتقاومه بسهولة.

وكل ما كانت تعرفه عن البراغيث.. هو أنها حشرة طفيلية تعيش في أمان فوق أجساد الحيوانات فقط.. وأن الحيوانات تألفها ولا

«تهرش» منها.. بل يبدو أن قرص البراغيت يهدهدها لتنام.. أو «يزغزغها» فتبتهج !

لم تتصور أبدا أن للبراغيت تطلعات. لذلك أعلنت احترامها للناموس لأنه يهاجم بصوت مسموع.. وشجاعة.. وفى الأماكن المكشوفة من البدن فقط.

بدأت البراغيت هجومها بعد استقرارها في العمل مباشرة.. وكل خبرتها شهادة وسذاجة ومثاليات قرأت عنها.. الهجمات تصيبها بنوبات تثور فيها دماؤها وتغلى فترة وتنتهى ببقع حمراء سريعة الانتشار.. وفى أجزاء ظاهرة وخفية من جسدها وآلامها لا تزول بسهولة.. تصورت أنها نوعاً من الحساسية احتارت في البحث عن أسبابها وعلاجها.. ولماذا تصيبها هي بالذات.. فلم تجد إلا نظرات الاستنكار أو الشماتة والصمت من هذا الحشد المتنافر !

زميل «ناضج» من الصامتين.. يطل من وجهه ضياء سلام همس لها بالسر أثناء استكماله أوراق معاشه.. قال لها المكان مرتع للبراغيت.. وهي تتوالد بكثرة هنا لأنهم ألغوا ميزانية شراء المبيدات.. ويرفضون المبيدات المجانية «المعونات» لأنها مضغوطة «اسبراى».. وهذا يضاعف من اتساع ثقب ذرع الأوزون الذى يحميهم !

انتفضت لبشاعة الحقيقة.. سألته: هل أهرب ؟.. فقال لها لا تتركى مكانك لأن وباء البراغيت منتشر.. أفعلى مثلى.. سدى مسامك بطبقة «برود» سميكة لترهقى البراغيت.. وتدفعينها لبذل

جهد مضاعف لاختراق بدنك فتشعرين بوجودها، وتحددين مكانها، فلا تشفقين عليها وتبعدينها.. اسحقيها فوراً.. وهذا سهل جداً.. فقط اضغطي بطرف أصبعك.. وستندهشين من أنها حشرات ضعيفة هشة منفوخة هواءً فاسداً!

عملت بنصيحته ولم تكن سهلة.. استغرقت سنوات لتنجح في تحديد موقع البرغوثة.. ولكن ليس دائماً قبل أن تلدغ وتمتلئ وتستريح.. وأصبحت عيون البراغيث متنمرة تنظر لها بحقد. وللحمها بحسد ورغبة جارفة لنهشها..

تعبت من حرب البراغيث.. لأنها كانت ما تزال في أعماقها تشك في حقيقة وجود براغيث آدمية بهذه البراعة والشراهة والضآلة.. وكلما مر بها الزمن.. تذكرت الزميل القديم ذا الوجه المضيء سلاماً. وأصبح أملها في الحياة وجهاً مثله.. ولكن ليس وهي تستوفي أوراق معاشها.. بل الآن وهي في أوج قوتها وحبها للحياة.

لذلك لم تتردد في الانتقال إلى العمل الجديد متصورة أن أي مكان جديد لا تعرف الحشرات طريقه إلا بعد حين.

كانت صدمة المفاجأة في حجم الأمل.. أن البراغيث وصلت قبلها! وأنها لم تعد سوداء دقيقة قبيحة.. بل براغيث ملونة زاهية.. جلدها أكثر سمكاً.. مجهزة بقرون استشعار إلكترونية.. خراطيمها الماصة مدربة وساحرة تستغرقك في تأمل جمالها وتتلذذ وهي تمتص دماءك وتخدرك قبل انسحابها.. وأنها تأتي في جماعات منظمة فلا تدري أيها هاجمك!!

لكنها أطمأنت ولاح ضوء سلام فى عينيها وهى تتذكر كلام زميلها القديم «أن الحل بسيط.. فقط اضغطى بطرف أصبعك وستفاجأين أنها هشة تختزن هواءً فاسداً».. بل وشعرت أنها محظوظة لأنها مازالت تجذب البراغيث وأيضاً تشعر بها!



- يابهوات.. إدارة المحل نظمت لكم رحلة للرصيف التاني..

.. والعربيات حتيجي لحد عندكم تاخدكم.. حد له غرض ؟

ولما جاء المعاش!

٤٨ ساعة متيقظا في عربة النوم.. ولكنها يقظة أشبه بساعات الإفاقة من البنج.. هو متأكد أنه لا ولم يهذ بصوت مسموع.. ولكن وجوه من حوله تؤكد أنهم يسمعون حواره الداخلى.. وأنهم يرون معه طوفان الصور المتساقطة على عينيه.. المنطلقة كالحمم من قلبه.. صورة مع كل نبضة..

أول مرة يرى فيلم حياته.. ويكتشف أن هناك لقطات مزدحمة رائعة.. وأخرى كانت العدسة فيها مغلقة.

ها هى صورته فى أول يوم يتسلم العمل.. ضئيل بسوالف طويلة وعفريتة ميرى نظيفة.. وصورته يوم قاد أول قطار.. قائد ببدلة ميرى أزرارها ذهب..

يومها كان حفل زفافه على القطار.. أخرج قطعتى القطن من أذنيه.. لتستقبل عزف العجلات مع القضبان وسط تداخلات صوت الصفارة ودخانها.. وهو يطغى على كل أصوات العالم.. فى أجمل إيقاع جرئ مقتحم يفجر الدم الثائر فى الشرايين وبنقلة واحدة من ذراعه الفتية على «الفتيس» تهدأ السيمفونية.. ويطلق النفير يعلن دخول الموكب الملكى متهاديا برشاقة.. يشق صفوف الجماهير المتلهفة على المحطة، فيلتحم أحباب مشتاقون، ويصل غرباء تائهون.

يعلن الرحيل وقد احتضن فى عرباته عيونا سارحة أو دامعة.. ينطلق بهم صاروخا مدويا يشق الهواء والسحاب.. يعبر نجوعا

وكفوراً.. تطل عليه عيون بشر بلا عنوان وبلا ماض.. من وسط زراعات خضراء سنابلها وعشبها يتمايل ويموج كأسراب الطيور تهلل وتترنم أمامه وخلفه.. وهو يتحاور مع منحنيات حادة ولا يميل.. هو القائد.

تطول قامته بمرور السنين لا ترتعش أصابعه.. ولا يبرز كرشه.. ولا تنوء ركبتاه أو تكلان.. طائر خفيف نظيف شارد.. وفارس شامخ مهاب.

تتبدل الصورة.. لم يعد يراقب المسافرين ليتعرف عليهم.. إنما يخترق عيونهم فيقرأهم.. هذا أصيل، وهذا صعلوك أو محتال.

فى عربة النوم الفاخرة هذه.. استقبل باشوات وأعيانا بشوارب.. وزراء ومهندسين يحملهم من محطة مصر ليخترق بهم قلب الصعيد.. متوازيا مع النيل.. أحلى أيام عمره وهو يتابع الخبراء القادمين للسد والنوبة.. حكاياتهم عملاقة كالسد.. عاش الأساطير.

القطار هو بيته، والمنزل كان مقر استضافته.. لم يحضر ولادة أى من أبنائه الخمسة.. لم يحضر لحظات تسلمهم شهادات التخرج.. حضر فقط حفلات زفافهم ومضى.

ماذا كان يأتى به للمحطة ليلاً.. وكأنه يطمئن على أطفاله الصغار النيام؟.. ها هى القطارات ساكنة.. هذا دخله عاملا.. وهذا استلمه بكراً ودشنه ووقع على شهادة ميلاده..

انطلقت أصوات حكايات ليالي السمر والونس والود الصافي من كل شبر في الصورة.. من البوفيه.. والمقصورة. والصالون.. وعربات الدرجة الأولى.. وكأن ذاكرته تذيع ما اختزنته سنوات.

آخر صورة أغمض عينيه عنها.. أهي حقيقة أم وهم.. هل تسلم أمس شهادة تقدير ومصحفاً فاخراً.. وورق معاش.. ودفتر مجانية سفر طوال العمر.. لم يخطر بباله يوما أنه سيركب القطار بختم!

سلم المفاتيح.. ولكنه لم يسلم القيادة أو الشموخ والإقدام.

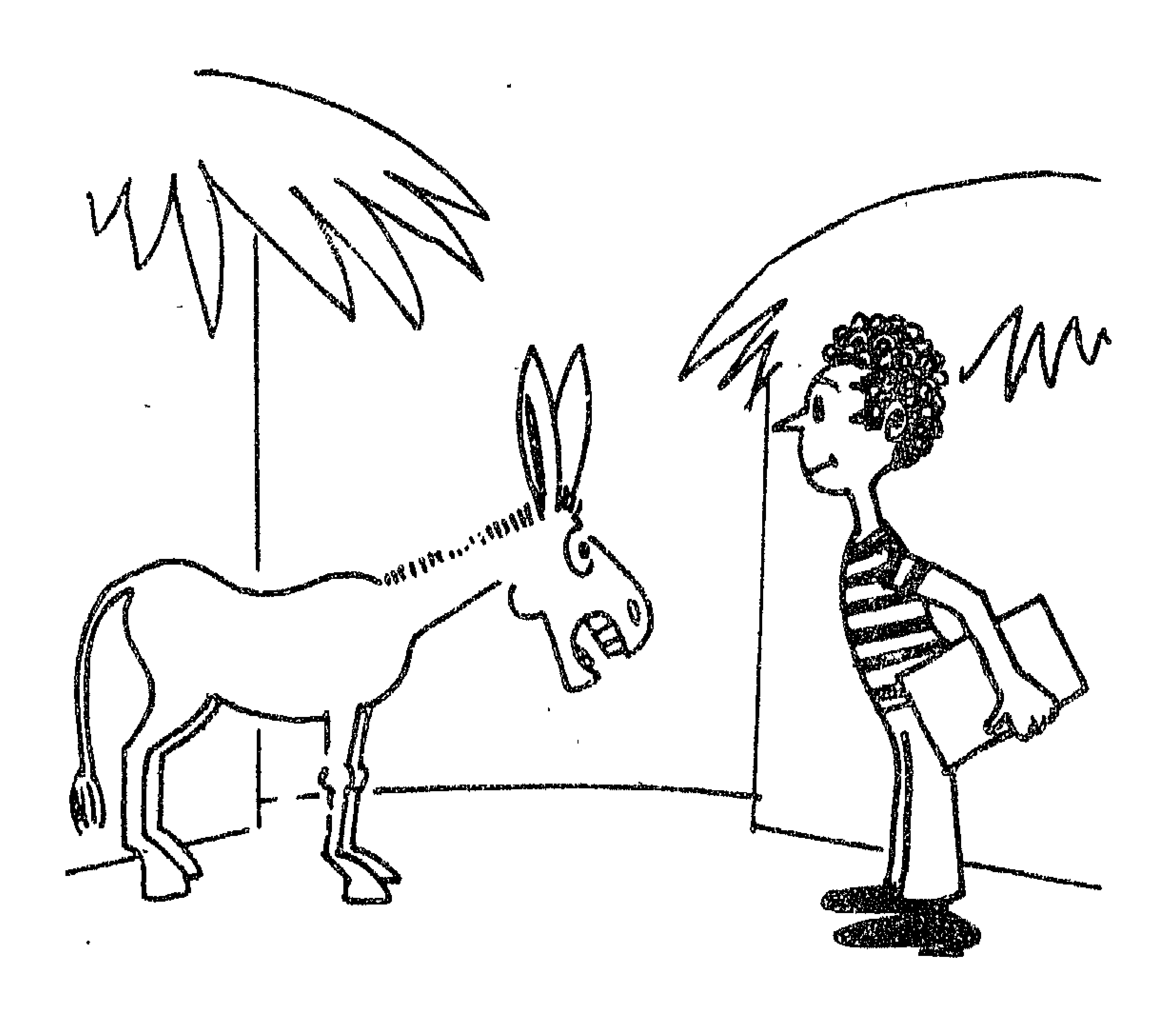
٤٨ ساعة قضاها متيقظا في قطار النوم.. جلس عكس الاتجاه على كرسي منفرد في العربة الأولى.. بالبدلة الميرى القديمة. جيوبها تهدلت. وكل أزرارها مفتوحة. خلع حذاءه.. ورفع قدما عارية، خريطة عمره مرسومة على تعاريج عظامها.. أتكأ عليها وهو يلف سيجارة من علبة «نشوق» صفيح صدئة.. وكأنه يعاتبها.. أخذ يتمتم كالهذيان.. بعد ٥٠٠ متر نهدئ.. وباقي على بنى سويف اتنين كيلو.. والفلنكات بعد ٦٠٠ متر متكآله!

دون أن يرفع رأسه قال للمفتش أجلس يا «عرابي»، جلس الرجل مطاطئا كأنه جاء لواجب العزاء.. فانطلق هو يكرر هذيانه.. يعلن ذاته التي توارت أدبا سنوات طالت.. يقارن ويصرح بما يعرفه من فساد ومؤامرات.. وكيف أنه قال لرئيسه الجبان يوما أنه أرنب.. وفي وشه!

أمثاله مكانهم قيادة سكك حديد مصر.. وليس الذين يجهلون مواقع الوصلات.. وعدد الفلنكات.. ولم تصل لأنوفهم المكيفة

رائحة بارود الاشتعال وصهده.. كان ينتظر خطابا من الهيئة ترجوه أن يستمر فى العمل سنوات.. وأن يقبل انتدابه خبيراً ومستشاراً. «وعرابى» يتململ.. ويكاد رأسه يسقط من كثرة الايماءات «بنعم» و«فعلا».

فرمل القطار فجأة بعصبية.. فتساقط كل شىء. الركاب والحقائب.. فأخذ يجرى حافيا نحو غرفة القيادة صارخاً فى السائق.. «ياحمار قلتلك الوصلات متآكلة بعد ٦٠٠ متر».



ـ انت فكرك إيه .. شوية دروس خصوصية وابقى زيك !

يوم طاعة الحمير !!

هذا الصباح.. أجبرني «حمار» أن أطيع رغباته كلها.. الحمار كان يجر عربة فول هي «دكان متحرك».. بعدما أفرغ كل حمولته من فول وعيش وزيت وتوابل في بطون جمهوره من سائقي التاكسي.. والعمال والموظفين.. المنتظرين هنا حول السور المحيط بأطلال عمارة الموت بمصر الجديدة.. الكل ينتظر اتوبيس المصلحة أو أتوبيسات هيئة النقل العام.

حشد يأكل ثم ينتظر.. في احتفال يومي صامت كأنه طقوس عبادة.. تحرك الحمار خطوات قليلة.. ثم وقف في عرض الميدان.. واضح أنه في حالة «تربسة» حادة لم أفهم سببها.. هل من مشهد «توهان» آكلي الفول المنتظرين خلفه.. أم أنه متألم من بشاعة اقتحام عربة الجيشِ لأتوبيس المدرسة منذ دقائق. رفضت الاحتمال الثاني لأنه حدث عادي.. ولأن الحمير لا تتأثر..

اكتشفت أن يدي تضغط على كلاكس السيارة بعصبية.. وأن عقلي مشغول بالبحث عن سبب بلادة الحمار.. وأن ما أفعله عبث..

قررت الصَراخ في صاحب الحمار ليجره بعيداً ويفسح الطريق.

ناديت يا.. وتوقفت محتارة.. بماذا أنادي الرجل صاحب الحمار.. فاجأني هو بالالتفات ناحيتي بوجه مبتسم راض هادئ وألفيته وجها مستريحا جميلا.. وقال وكأنه يغني «الصبر يا هانم.. ده حمار لازم احنا نستحمله».

لم يستفزنِي كلامه ! ! وأيضاً لم أحاول الهروب من طريق الحمار . . وقفت خلفه انتظر ، وفي ثوان انهمر خلفي سيل من قذائف الكلاكسات . .

جاءت وقفة الحمار استراتيجية في غبائها فعلاً . . فهي تعترض النفاذ للشارع الأيمن بمتر واحد . . فأوقفت حركة كل الشوارع المتصلة بالميدان . . أما هو فإنه في عالم آخر . . يحنى رأسه لأسفل يزاقب أقدامه . . يرفع قدما ، يثنيها ويفردها ثم يدق بها الأرض وينهق . . أو يتثائب . . ثم يفعل نفس الشيء بالقدم الأخرى . . هل يحلم أم يسبح . . أو تصور نفسه حصانا يرقص على المسرح . . أو رياضيا يستعد لنزول الملعب ! !

بعد تكرار تبديل القدمين . . نفض رأسه بشدة . . هل يطارد الذباب أم ينفض الأحلام ؟ بعدها رفع رأسه للسماء و« نهق » بقوة جبارة ملتفتا بركن عينه للسيارات الواقفة خلفه . . نظرة بليدة خاملة . . وتمطع !

صوت الكلاكسات القبيح أزعجه واتعب أذنيه . . فخفضهما لأسفل ، أغلقهما واستراح ، وأعتقد أنه ابتسم ولم يتحرك من مكانه .

وبعدين . . ما الحل ؟ . . نظرت من الشباك . . بجوارى مرسيدس « شبح » . . ترتفع فوق سطحها المضيء مجموعة أسلاك مفرودة ولولبية ، وما ينتهي بطبق صغير . . ولكنها صامتة تماماً . . لم يتردد سائقها واندفع في المتر الخالي بين الشارع الجانبى ، وبين جسد الحمار بجسارة وحسم . . تاركا بقايا الفوانيس اليسرى « للشبح » على الأرض تحت الأقدام .

قوة الصدمة جعلت الحمار وعربته الخشبية يدوران حول بعضهما.. لم يسقط الحمار، وإنما طارت وانقلبت محتويات العربة علينا.. وانفلت لجام الحمار.. وفقد اتصاله بالعربة.

اندفع المارة لإسعاف بائع الفول.. وتركز بصرى على الحمار.. لا لم يطر.. أو يسقط.. إنما نظر حوله نظرة واحدة عميقة سريعة استوعب بها ما حدث.. ثم جلس على الأسفلت فى وضع غريب.. كأنه حسناء تتدلل أمام كاميرات التليفزيون!! فخوراً بما فعله بالشارع.. وهو مجرد حمار!!



- ما يهمكش من محو الأمية .. فيه بعد كده محو التعليم !

خطة مُحكمة جداً !!

تطن فى أذنه بإلحاح هذه الفكرة المجنونة.. «لماذا لا يصفع رئيسه قلماً» (؟!) وبعد تمام اقتناعه قال لنفسه.. «صفعة واحدة قوية تتبدل حياتي بعدها»!

كالمجذوب.. لا يتوقف لحظة عن التفكير فى خطوات تنفيذ العملية وتعديلها.. السكرتير متجه للخزنة.. المكان خال.. وهو يمرق ليقتحم باب المدير دون استئذان.. يندفع مباشرة نحو المكتب.. يضغط بيده اليسرى المفرودة على أوراق المدير «الهايف» ويهوى بيده اليمنى النحيلة فوق الخد المكتنز.

«الله» قالها باستمتاع وهو يحس برعشة تلامس كفه الملتهبة بخد رئيسه.. ويرى علامات أصابعه حمراء مرسومة على الوجه الأبيض المذعور.. ثم يخرج بسرعة، وكما دخل. محنى الرأس أدباً.. وهرباً من مطاردة عيون أو حذاء رئيسه.

قفز فى سره ضاحكاً.. وهو يتخيل كل جسد المدير ينفجر كمدا وغيظاً لاستحالة سرد ما حدث لمخلوق.. ومن يصدق.. انتصبت عروقه تمرداً على كل سنين الظلم والمثالية فهو.. نموذج للموظف المخلص العفيف.. وبلغة رئيسه الساخر.. «ابن ناس».. عمره الوظيفى سبعة وعشرون عاماً.. لم يهمس فيها مرة مطالبا بحق أو معترضا على الظلم!! ولكن.. أخ.. قالها وهو يخبط جبهته الباردة.. كيف فاتنى أن أغلق باب غرفة المدير من الداخل بالمفتاح الحمد لله الذى نبهنى!!

ومن نافذة ترام « ١٤ » العائد لمنزله الصامد.. امتد سرحانه وهو يتأمل سلاسل العربات المتلألئة تحت الشمس.. عربات تجار العملة والمخدرات ولصوص الحكومة.. و«باسط» الجزار.. وعاد لتأكيد ضرورة ضرب رئيسه.. لماذا؟ لأنه حرامي يتلألأ مثلهم.. ولأنه يحارب الشرفاء بوقاحة منذ امتلاكه للمصلحة بكل ثرواتها (وكأنها أبعدية..) وبصراحة يجب ضربه لأنه محا هيبته ومقامه هو ومرتبه وعلاواته.. أمام عائلته الممتدة المنبهرة بإعلانات التليفزيون.

اكتظ الترام.. وتلاحمت الأجساد بالسلم.. وهوى على وجهه «ملف» أوراق حكومي مألوف.. بلا وعي أمسك باليد القابضة على الملف.. وأخرج كل رأسه من النافذة ليفاجأ «بعم فوزي» ساعي المدير مستميتاً على السلالم.. مستنجدا في صمت لإنقاذ الملف المتجه فرضاً لمنزل المدير.. سأل بأقصى صوته عن عربة المصلحة.. فلم يلتقط من الضجيج سوى كلمات عزومة.. وسمك ومعازيم! وصمم على ضرب المدير «كفاً».

في الصباح التالي.. جلس متأنقا على مكتبه.. عيونه متأهبة لامعة.. عبر التليفون الداخلي ناداه السكرتير بكلمتين تعودهما.. «تعال بسرعة».. اندفع متساقطاً على السلالم لتلبية أوامر المدير.. على بابه المغلق استوقفه السكرتير باقتضاب ويده ممدودة بملف الأمس.. «البيه مشغول.. طالب تقرير عن الملف ده بسرعة».. وهو يلتقط الملف لمح فص ألماظ خاتم السكرتير الذهبي يتلألأ.. فتخيل سبابته ساطوراً يبتر الأصبع المرتشية.

عاد يصعد السلالم متثاقلاً.. مقارناً نفسه بالسكرتير.. تغاضى عن فروق الشهادات والكفاءة.. وتوقف عند «الاحترام».. السكرتير يسمع ويرى، فينهب أولوية المنح والمميزات و«الاحترام» حتى وهو يتنازل بقبول الرشاوى.

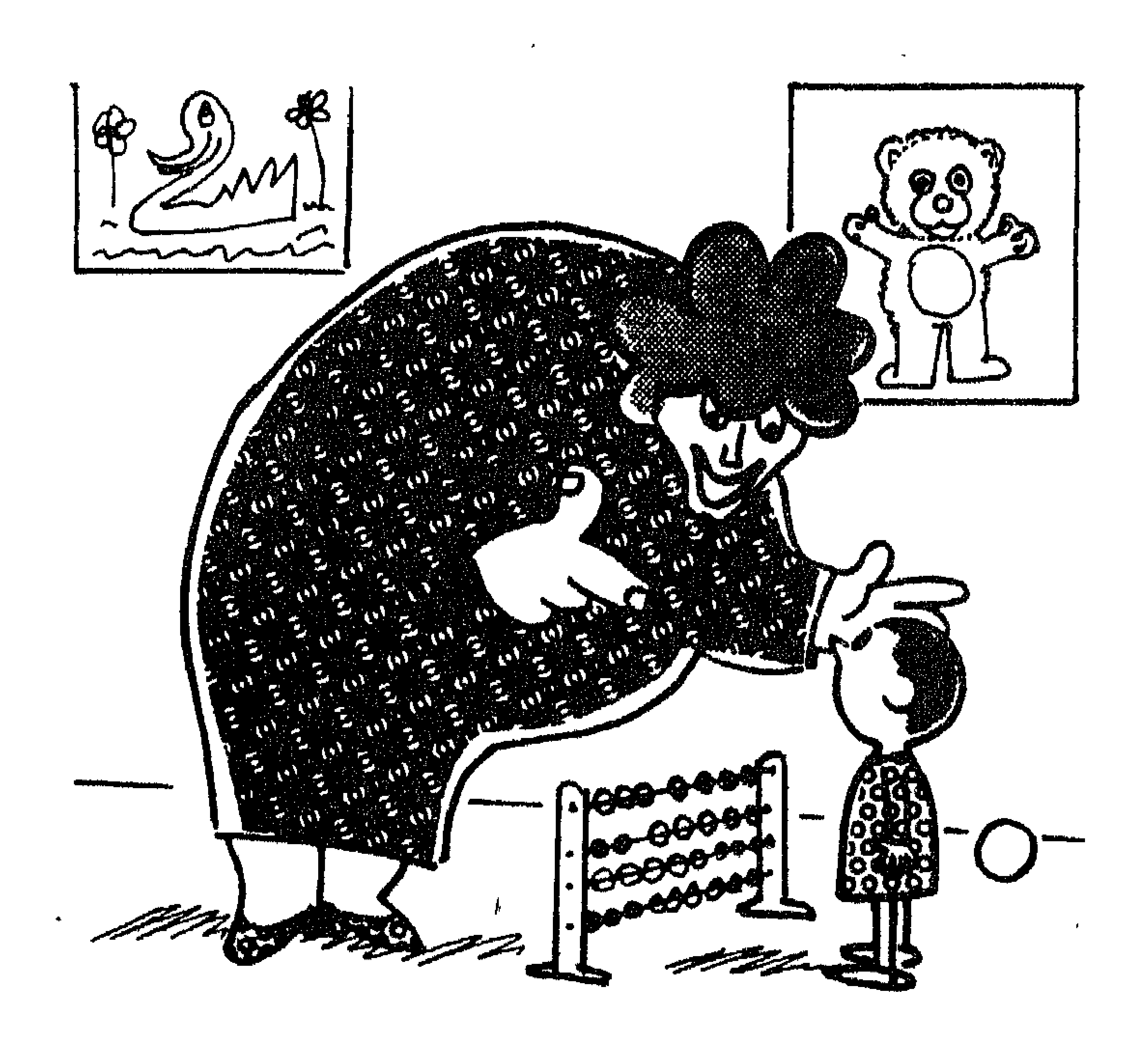
أغلق القلم.. تمرد عقله وأعلن عصيان الثورة.. لن يكتب التقرير.. يده اليمنى في حرارة سيف العدالة.. لن تلمس سوى وجه المدير «بصفعة».. تلاشى الوجود كله من حوله.. وغرق في مشاهد سريعة وباترة كالحقيقة.. باب حجرة المدير يستقبله.. يطير نحوه سابحاً.. يدوى صوت فرقعة «الصفعة» وتطير رأس المدير نحو النافذة.. ينسحب سابحاً في الهواء ويختفي في نفس لحظة عودة السكرتير بالمنحة، والفراش بكرتونة فراخ لبطن عائلة المدير.

انتفض على صراخ التليفون أمامه.. قبل أن يرفع السماعة قال «نعم».. وقال السكرتير «أنا في الخزنة بعد خمس دقائق هات التقرير لمكتبي».. أغلق الخط وانفتحت كل شرايينه.. الدماء الحارة تفور.. تتصاعد لأذنيه تكاد تغرق المكتب والموظفين.. إنها ساعة الصفر.

قفز السلالم.. فاقداً الإحساس إلا بيده الملتهبة.. المكان خال.. باب المدير موارب.. دفعه.. اندفع بخفة.. وصل مسافة نصف متر من المكتب.. ارتفعت يده المتصلبة استعداداً للصفعة.. ولكن.. وجه المدير استمر منحنياً على الأوراق «الهايفة».. أخذ داخله يصرخ بقوة.. ارفع وجهك ياجبان لأضربك.. يصرخ ويصرخ.. والدم يفور

ويهبط.. مرت دقيقة.. دقيقتان.. ثلاث دقائق.. والمدير منكب على أوراقه!!

خرج متهالكاً في لحظة عودة السكرتير والساعي.. لم يسمع سؤال السكرتير عن التقرير.. وإنما سقط أمام كرتونة «الفراخ».. ومات.. وتبدلت حياته تماماً!!



ـ قول ياحبيبي .. واحد دولار اتنين دولار تلاتة دولار اربعة دولار ..

صورة شخصية !!

هاجرت..

أغلقت خلفها باب حجرتها في المصنع.. وعيون المتعطشين لهذه اللحظة تكاد تدفعها للخارج.. تعلم أنهم لن ينتظروا خروجها من باب المصنع.. سيحتلون مكتبها ومقعدها فورا.. ويخلعون أحشاءه ويلتهمونها.. لم تترك لهم سوى آخر أوامر تشغيل بخط يدها.. والبالطو معلقا على الشماعة الأنتيك التى خلعتها من حجرة جدتها لتشعر بالدفء والحماية فى مكتبها الجديد الملحق بالمعمل.

هذا المكان ظل جزءا مكملا لحياتها ووجودها طوال عشرين عاما.. تسلمها مهندسة شابة بامتياز فى الكيمياء.. وأغلق الباب خلفها امرأة انحنى ظهرها من أحمال الحياة والبشر.

وأغلقت باب منزلها.. وهى تعلم أن السمسار سيأتى فى الغد.. إن لم يكن بعد لحظات.. يفتش فى بقاياهم.. يثمنها بأسعار اليوم.. بحذائه المترب سيدخل حجرة نومها.. وحمامها.. ومطبخها.. ويطفئ سجائره الرخيصة على الباركيه.. ويأتى بأغراب يفاصلون.. ويبدلون الأنفاس والروح والملامح والأصوات ورائحة الطعام.. يفتحون كل النوافذ مع الجيران.. يرفعون الستائر عن كل شيء.. يسمحون لأطفالهم بمطلق الحرية والتلقائية.

ومنزلها هذا تسلمته حوائط وفراغا.. نسجت كل خيوطه.. وبات مكدسا بالتفاصيل والحواديث.

وأغلقوا خلفها باب الطائرة..

تعمدت أن تكون آخر من يدخل.. سبقها زوجها والأولاد.. لم ينظر أحدهم خلفه.. هى فقط التى استدارت تتابع الأيادى القوية التى سحبت السلم.. والتى أغلقت باب الطائرة وأحكمت المتاريس.. كل ذرة فى كيانها تترجى أن يتركوا الباب مفتوحا.

أحكمت حزام المقعد بعد إلحاح.. انسحب الأكسجين والضوء.. ودوى صوت المحرك يعلن الرحيل.. ومعه أطلقت جحيم الدموع والصراخ. من يفتح لها شباكا لتقفز عائدة لمخدعها.. نظرات زوجها تترجاها أن تصمد.. وعيون أولادها انكسرت عاجزة عن مواجهتها.. إنهم راحلون.. هاربون بفرح واشتياق.. لم يتركوا لها إلا حرية اختيار البقاء وحيدة بعدهم.. أجبروها على المضى فى إجراءات الرحيل.. ولم يتصوروا أنها ستأتى بالأغلال والسلاسل معها للطائرة.

الوظيفة تسحق فى زوجها كرامته وأحلامه وطموحه عشرات المرات يوميا.. يعشق المهنة والعمل والمكان.. يتفانى ويهدر دمه وأعصابه فى كل خط يرسم به خرائط تنفيذ مشروع جديد.. ويقدمها وليمة لمجلس إدارة رائحة عفونته لوثت هواء المدينة كله.. ولم تعد خانقة إلا لأمثاله العاجزون عن الغوص فى الأوحال.

تنصحه أن يرتدى مثلها قناعا واقيا من التلوث ويمضى فى طريقه.. ولكنه لا يحتمل الأقنعة.. ولم يدرس الكيمياء.. وأعصابه تتنافر مع التلوث.

والأولاد يتشربون عذابه.. يتابعون الصراع والانهيار اليومى.. يضرب مناعتهم الطبيعية وتهتز ثقتهم فى المستقبل.. وتنطلق عيونهم مثله إلى هناك.

وهناك.. بعيداً.. ترفع أرض الأحلام أعلامها وتطلق الصواريخ.

ضغط الهواء يجثم على صدرها.. يضغط.. الوقود يلتهب.. يطلق الطائرة صاروخا يشق هواء الممر.. ترتفع.. تشق السماء.. يتلقاها السحاب.. يحملها كالريشة.. وينطلق الأكسجين والضوء.. تخفى وجهها فى النافذة.. تتابع عجلات الطائرة وهى تنسحب لصدرها.. وكأن الطائرة تغلق جفونها وتسلم جسدها للسحاب.

تميل بالمقعد للخلف.. تسقط رأسها.. وقود المحرك سحب من جسدها المقاومة كلها.

تسبح فى مقعدها كرواد الفضاء بلا جاذبية.. كيف أجبروها على السيرمعهم فى إجراءات الرحيل.. املئى الاستمارات.. اختميها من المصنع.. اسحبى شهادة الميلاد والتخرج من شئون العاملين.. اكتبى استقالة أو معاش مبكر.. اذهبى إلى الاستوديو للتصوير.

لحظة جلوسها أمام المصور كادت تدرك أنها تجهز أوراق الرحيل.. سمعته يطلب منها الاعتدال والنظر مباشرة للكاميرا.. وأن ترفع شعرها بعيداً عن أذنيها لأن هذه صورة هجرة.. يجب أن تظهر فيها كل ملامح الوجه والأذنين بدقة.

ظلت تحملق في صورتها كثيراً.. كأنها ترى الواقع ويجب أن تصدقه.. هذا وجه يسلم نفسه للجندية.. ينتظر حلاقة الشعر وحمل الأغراض.. وختم رقمه علي ملابسه وصورته. سلمت الأوراق لزوجها الذى استعاد ضياء حماسه القديم.. واسترد عافيته وشبابه.. ووجه بوصله الأسرة كلها نحو المحيط. وأرض الأحلام.

كلما ذابت وارتجفت وعجزت عن التوقيع علي تنازل جديد عن حياتها.. يعيد شحنها لا لتفكر أو تحلم.. إنما لتتقدم دون أن يضطر لحملها.. يضاعف الوعود ويلمس الجراح ويسحبها فتمضى.

سبحت الطائرة.. عبرت المحيط.. نامت واستيقظت وارتجت ووصلت.

خرجت من الطائرة.. حطت فى البلاد البعيدة.. ولكنها ظلت سابحة مع الهواء كل سنوات الغربة.

مرت السنوات الأولى بليالى الشقاء الطويلة ولحظات السعادة العابرة.. ترسل لنا خطابات طويلة وقصيرة بلا تفاصيل.. وكروتا تضخم قيمة المناسبات وتحوى أشعارا وزهورا كتبها ورسمها شعراء محترفون. باعوها لمطابع المهاجرين هناك.. تحكي عن ذكرياتها معنا ولا تحكى عن حاضرها إلا أخبارا موجزة جافة.

فى الغربة أوحشتها شاعرية خناجر ومكائد زملائها الموظفين فى المصنع.. كانت مطبات تخفض سرعتها.. ولم تكن آبارا لابتلاعها والردم فوقها.

تقول إن حياتها انتظمت.. تمزج رثاء نفسها بثمن تضحيتها التي أجبرت على اختيارها.. هي أصبحت موظفة ومواطنة درجة ثانية في غابة عامرة بالوحوش والثمر.. أولادها تفوقوا في الدراسة واختاروا ما تمنوا أن يتعلموه.. دخلوا دروب الغابة وتعلموا قوانينها ويتذوقون من ثمراتها.

أما زوجها.. فلا تزيد عن وصف واحد لحالة.. إنه طائر طليق ينتقل من وظيفة لأخرى.

أوقفت خطاباتها.. وحجزت على نفس طائرة الهجرة زيارة للوطن.

لحظة أطل علينا وجهها.. تذكرت الصورة التي أهدتها لي ليلة الرحيل.. الصورة الشخصية بمواصفات السفارة.. والتي أغلقت عليها الألبوم بعدما أقلعت طائرتها.

وجهها ونظرتها يطابقان الصورة بعد كل هذه السنوات.. لكن تبدد الجمود لحظة أن تعانقنا.. كل ما فيها ينطق بالاشتياق.. تلمس.. تحتضن وتتشمم أنفاسنا.. تتوه وتعود بإيقاع سريع وعصبية جديدة عليها.. تريد استعادة كل الصور القديمة.. الأماكن.. الوجوه.. الأصوات.

أول اشتياقها إلى كوب عصير قصب طازج مثلج له رائحة.. يترك في الفم بقاياه.. ذرات ألياف مسكره تدوم طويلاً.

استغرقت في قشور وهربت من مخابئها القديمة.. رفضت زيارة المصنع.. أو زيارة منزلها.. بل تجنبت الحديث عنهما.

تغلق أذنيها وتحكى عن منزلها هناك.. وعن مصنعها هناك.. صاحبه الهندى.. ومديرها الباكستانى ورئيس العمال الطليانى.. وتحمل معها رسائل من زميلة حديثة انضمت إليهم فى المعمل منذ شهور.. مهاجره مصرية.. عروس حاملة امتياز فى الكيمياء وأحلام بالحرية والاختيار والرخاء.. وحملتها خطابات يدوية وصوتية وهدايا بسيطة للأهل.

تخلصت من أثقال زميلتها فى آخر يوم.. وهى تعيد ملابسها وأدواتها الى حقيبة السفر.. والعودة للمهجر.. وطلبت منى أنا توصيل الرسائل.

قبل أن تفصلنا بوابة صالة السفر.. أهدتنى صورتها مرة أخرى.. نفس الصورة الشخصية دون أن أطلبها.. سألتنى فجأة هل أعطيتها لك من قبل.. لا أدرى لماذا أجبتها بالنفى.. ولماذا شعرت أنها تسلمنى وصيتها وتترك اعترافها أمانة.

رحلت وتركت الرسالة واضحة وضوح نظرتها فى الصورة.

نظرة المفقودين الذين يحاولون التعرف على أنفسهم.. ونظرة صور الذين تعثر عليهم السلطات وتبحث عن ذويهم.. نظرة خرج ولم يعد.. ونظرة إذا تعرفت على صاحب الصورة اتصل بهذا الرقم.

كأنها سحبت ملفها من شئون العاملين بالمصنع والوطن.. واختصرته فى هذه الصورة وألصقتها بأوراق الهجرة والرحيل ثم تعطل الإرسال وثبتت الصورة.



ـ عايزين ياسيدى ينقلونى .. وأنا لايمكن أتنقل من هنا.. قال أتنقل قال!!

الأستاذ هواء !!

سعال جارنا الموظف هو صياح الديك لسكان عمارتنا كلهم.. عمارتانا متلاصقتان إلا من شريط ضيق يضاعف صدى صوته.

يسعل بانتظام ثلاث مرات كدقات المسرح. لا نعرف ماذا يفعل في فترات الصمت بينهم.. لكن ندرك جميعا وجفوننا مطبقة ثقيلة.. أنها السادسة والنصف.. وأن الشمس بدرت أول باقة من أشعتها.

ينطلق سعاله من حنجره أوبرالية لا تتفق مع وجوده الباهت في العمارة والحي.. وربما في الحياة.. طوال هذا العمر لم نعرف عن شيئا.. لا اسمه ولا أصله ولا عمله ولا ملامحه بالتحديد.. رغم أنه سكن هنا شابا وأصبح الآن جدا لثلاثة أحفاد يعيشون معه أغلب العام.

غالباً لم ينقطع عن عمله يوماً.. ولم يغير من عاداته إلا نادراً.

حتى ملامحه لا تشير لأصله.. يحمل ملامح الفلاح في اختيار ملابسه.. تكاد ترى الصديرية الحرير المقلمة تحت القميص الباهت دائماً.. وله ملامح الصعيدى في سعاله.. تسمعه فترى العصفورتين والشارب والصقر.. وله شعر وتسريحه أنور وجدى.. مع بياض بشره وتقاطيع خريستو بقال الأفلام اليوناني.

والأستاذ.. الأستاذ.. ليكن اسمه الأستاذ هواء.. لأن تعريفه بساكن الدور الأول طويل ومرهق في الكتابة.. ولأنه أشبه بالهواء.. لا تلمس وجوده إلا من ارتفاع صوته مثل الريح.

الأستاذ هواء له طقوس ثابتة.. يسعل في السادسة والنصف غالباً ليعلن لنفسه ثم لعائلته أنه موجود.. وأنه استيقظ.. يفتح شيش البلكونة.. يدخل.. يمسك عامود السور بقوة وينظر باهتمام على لا شيء.. يطل يوميا بنفس الزى الموحد.. جلابية بيضاء صيفا وبيجامة مخططة شتاء.. ينظر للجريدة المغلقة الملقاه على الأرض يتركها مكانها.. ويدخل.

بعد عشرين دقيقة يعود لنفس الموقع بملابس الوظيفة.. قميص وبنطلون يضاف إليهما بلوفر شتاء.. ملابسه لموظف فاقد الحماس والاختيار والطموح.. يلتقط الجريدة.. يشق استدارتها.. يفتحها.. يمر على عناوين الوفيات.. يعيد ترتيب أوراقها بعناية كأنه يكويها.. يتركها على المنضدة ويدخل.

بعد خمس دقائق.. يخرج من باب العمارة فارداً صدره.. رافعا أنفه.. متجها بكل جسده للإمام.. لا يتلفت.. يتجاوز الحركة النشطة لغسيل السيارات.. يتفادى البواب وصبى الجراج ومواقع جرادل المياه والبرك الصغيرة تحت العجل.. يخطو سبع خطوات إلى حافة الرصيف ويقف في انتظار أتوبيس العمل.

حتى أتوبيس العمل بلا هوية مثله.. أتوبيس هوائى.. لا يحمل أى إشارة تدل على نوع العمل ولا المكان الذى يحمل هؤلاء الموظفين إليه.

يقف ثابتا كالتمثال.. لا يثير فضوله أى تغيير في الشارع.. شجره أثمرت.. شجرة أزيلت.. نخلة تحتضر زرعتها البلدية ببلاهة

في منتصف الشارع.. سيارة حديثة مثيرة للفضول انضمت لطابور السيارات.. سيارة جار دهمها ونش مرتفع. أو سائق ميكروباص «مبرشم».. لا شيء يخترق مسامه.. يجمع مشهد الرصيف والشارع وغسيل السيارات بنظرة واحدة شاملة محايدة.. ويقف موازياً لعمود النور.. متتبعا حركة الأوتوبيس الآتي بعد دقائق.

يبتلعه الأوتوبيس.. يختفي به ساعات العمل الثمانية.. ويعود به في الثالثة والنصف.. يهبط في نفس النقطة.. بنفس الملامح.. كأنه صعد وهبط دون غياب.. لا إرهاق.. ولا انحناء.. ولا أحمال.. ولا أدنى فوضى في ملابسه أو تسريحة شعره الثابتة هلالاً مرتفعاً فوق جبهته كان لامعا قبل المشيب.

يعود للحياة في الثامنة مساء.. يرتفع صوته معلقا على أحداث المسلسل التليفزيوني السابق لنشرة التاسعة.

صوته له نبرة واحدة مثل سعاله.. حتى ضحكته العالية لها صوت السعال.. يناقش أحداث التمثيلية وشخصياتها باهتمام عجيب.. جدية وحماس لكل التمثيليات مهما تدني مستوى تفاهة الأحداث أو سخافة الحوار والممثلين.. ثم يصمت متابعا نشرة الأخبار.

ينتقل إلى البلكونة.. يجلس كالشبح في ظلامها حتى يصمت كل ضجيج الشارع.. ويعود خاليا إلا من السيارات المتراصة أمام الرصيف في انتظار الصباح!

ينسحب إلى الداخل في هدوء يطابق صمت الليل.. استعدادا للسعال مع شروق الشمس.

طوال أيام عمره الماضية هنا . . لم نر صديقا أو زميل عمل ينادى اسمه من الشارع . . ولم نره خارجا مع أسرته إلا نادرا . . وغالبا في واجبات تهنئة أو عزاء . . لا يسير بجوارهم أبدا . . هو فى المقدمة . . وهم يهرولون خلفه في اتجاه محطة الأتوبيس البعيدة .

عرفنا أن الأستاذ هواء أحيل الى المعاش من اختفاء اتوبيس العمل . . ومن تغيير مساره الصباحي .

بعد السعال . . وإعادة طي الجريدة . . يعود بكوب شاى ويفتح الجريدة مرة أخرى . . يظل يقرأ كل سطورها . . حتى تدب الحياة فى الشارع . . وترحل أغلب السيارات المنتظرة أمام الرصيف .

يخرج من العمارة مفرودا . . بملابس وملامح الوظيفة السابقة . . بيده حقيبة للسوق . . يسير لعمق الشارع . . يختفي . . يعود بعد ساعة بالاحتياجات اليومية وأبرزها العيش الطازج . . لم تعد زوجته مسئولة عن شراء الطعام أو احتياجات المنزل بعد .

يرتفع صوته من المطبخ . . يسرد ملامح السوق اليوم . . مع مقارنة الأسعار والجودة عن الأمس وعن الأسبوع السابق . . وينهيها بتنبؤاته للغد .

ثم يصدح فخورا بنفسه معددا مزايا ما اختاره وانتقاه . . ويعيد تسميع أساليب وقرائن غش التجار والمزارعين . . مؤكدا أن الغش هو سيد الموقف في السوق .

وزوجته تعيد تأييده بنفس الحماس اليومي . . يدين ويندد ويأسف . . لكن لا يهدد بالإبلاغ عنهم أو الامتناع عن الشراء منهم !

ويكرر نفس السلوك والحوار يوميا فى نفس التوقيت.. ما عدا يوم الجمعة.

ويصمت..

وفى الثامنة يعلو صوته على صوت موسيقى بداية التمثيلية.. يلخص أحداث الأمس.. ويواصل التعليق على الشخصيات وبعض جمل الحوار.. ومع موسيقى النهاية يحلل أحداث اليوم ويطابقها مع تنبؤاته بالأمس.. ويتنبأ للغد.

يصمت مع نشرة أخبار التاسعة.. بعدها يتجه للبلكونة.. ليمضى بها المساء حتى تنسحب الحياة من الشارع ولا يبقى حيا إلا حركة الهواء مع أغصان الشجر.. وضوء مصابيح النور ورقصات حشرات الليل حولها.

يغلق شيش البلكونة.. ويختفى ليوقظنا سعاله فى السادسة والنصف.



ـ أى نعم الثورة قالت التعليم ببلاش .. بس ما قالتش « النجاح » ببلاش والا بفلوس !

غاضبة من الموظفين

هذا الصباح مختلف .

اعتدت أنا أن الجأ إليها . . واعتادت هي أن تطلبنى فقط عندما أغيب عنها خجلا من كثره ما ألقي عليها . . يدق تليفونها ليرفعنى الى السطح بسلام في اللحظة الحرجة دائما .

ولكن تليفونها هذا الصباح مختلف . . هي التي تتكلم . . تؤكد لي أنها تخلصت تماما من فعل الغضب . . وأن هدوءا وسلاما يغمران روحها وجسدها . . ولم أكن رأيت هذا الغضب الخاص لديها إلا في لحات كانت تخفيها بسرعه وبراعه .

إنها راغبة في الكلام عن نفسها الآن . .ولأنى أعرفها . . ولأنها علمتنى هذا الدور . . أسرعت إليها لأن هذه الهدنة لن تستمر طويلا .

هي إنسانه مختلفه . . ينقسم الناس في الحكم عليها رغم سهولة التعامل معها . . النصف يخشاها ويتجنبها لأنها امرأة مسترجلة . . تحارب طواحين الهواء . .أدركت أنها أخطأت وظلمت نفسها بمخاصمه أنوثتها طوال سنوات الشباب و النضج . . لكن كبرياءها منعها من التراجع والهبوط في المحطة الأخيرة .

والنصف الآخر يتمنى ان يشبهها . . يتمنى شجاعتها في التمسك بالمدينة الفاضلة شبه الخاليه التى اختارت الحياة فيها .

لم تتزوج . . لأن كل من تقدم للزواج منها موظفون في وظائف ثابته الملامح . . وهؤلاء مرفوضون دون مناقشه . . كل ما فيها يتنافر .

معهم.. كلهم نسخه واحدة.. بشر مفرغون داخلهم أجوف.. تشحنهم الوظيفة بجرعه فتور يومية... تلقى بهم الى منازلهم جثثا فاقده الحياة.. تأكل وتحملق في التليفزيون.. وتتلصص على أخبار الجيران.. تحسد الأقارب.. تجثم على الزوجات لإفراغ طاقة غضب من ذل وقيود الوظيفة..تصرخ في الأولاد لأنهم يلتهمون المرتب والصحه والأحلام الشخصية.. وتنام مجهده من شده الخوف من مفاجآت الغد!

أعشق صفاءها .. وأسلوبها في الحكي.. لها فلسفه مضحكة تسحب التوتر من الخلايا والخوف من الشرايين.. وتضئ العالم حولك بصواريخ العيد.

تحدثك عن رحله الحياة فتتمنى الحرية والشجاعة مثلها.. وتحدثك عن المجهول المختبئ خلف الموت.. فترتفع معها عن الواقع.. تعبر سحب وسموات.. تستدعي الراحلين لتأكيد كلامها.. فتراهم وتسمعهم مثلها.. وتشتاق للقائهم لأنها قتلت رهبه الموت.. حولته جسرا لمغامره أخرى مختلفة.. في مكان بلا قيود جسد ولا قيود إراده ولا قيود اختيار ولا محاكمات.

جلست في حضرتها الحميمه.. كانت في حاله ارتياح حقيقية.. تكلمت وأفاضت. .دمعت وضحكت وسحبت أنفاسا حارة صادقة كالاعتراف الأخير.. حتى أنني ارتجفت .. خفت أن يكون هذا آخر مالديها وأنها راحلة .

يراها الناس امرأه وحيده تجاوزت عمر الأحلام والتمنى.. يعتبرونها راهبه لأنها كرست حياتها للخدمة العامة وتفانت معها حتى أكل منها الزمن جمالها وشموخها ولم يتركها إلا أقل صلابة وأكثر تجاعيدا.

إذن هى تعرف كيف يراها الآخرون، وتعرف أيضا أنها تمثال المثل الأعلى لنا.. تمثال صلب من المرمر.. وهذا صحيح لم أرها أبدا إلا وجها صادقا.. وروحا سليمة الا من خدوش.. وشرايين يتدفق منها نبع صادق من السلام والانسانية.

وأنا صغيره كنت اتصور أن تحت ردائها جناحي الملاك.. وأن نسيجها الحي ليس مثلنا.. وأنها لم تكذب ولم تتخابث ولم تمارس الهفوات الصغيره مثلنا أبدا.

واعتقد حتى الآن أنه لم يجرؤ إنسان بعد أسرتها الصغيره أن يتجاسر ويسألها لماذا لم تتزوجى ..وشملنى يقين قديم أنها لم تمارس ثرثره المراهقين.. ولا عانت من رغبه الأنثى فى رجل يحتويها.. لأنها ترى ما لاتراه.

تتكلم.. تختلط ذكرياتى عنها مع حضورها.. أراها جميلة كما يوم عرفتها.. لأنى لم أكن أنظر إلا لعينيها وروحها.. صوتها لم يتغير.. ولا خفتت نبرة الفرح والتفاؤل فيه.

تحفزت أوردة رقبتها.. وانحنت كتفاها قليلا.. لكن مازالت رأسها وآراؤها شامخة.. ولا تخفض عينيها أبدا وهى تتحدث إليك.. تمد جسورا من روحها عبر عينيها إلى القلب والمشاعر.

تحكي عن الغد.. تذهلني.. تصورتها ضعفت وعادت بشرا مثلنا.. وأن واحده من مخاوف البشر أطلت وداعبتها.. أين الخوف من المرض.. من الوحدة.. من الوهن وتسرب طاقة العضلات حتي؟!.

ماذا عن الغد؟..

قالت.. تحررت بصعوبة.. أغلقت كل ملفات الخدمه القديمة.. الأسبوع الماضي فقدت حقيبتي..نسيتها في التاكسي.. وكان بها نظاره النظر.. ضياع النظاره كشف لي عن حقيقه غرقت فيها ولم أشعر.. إنني أصبحت موظفه!!!... مديره لكن موظفه.. أقرأ تقارير.. أعلق عليها... أوقع على قرارات.. وعلى شيكات!!

توقف كل ذلك.. لأنني فقدت النظارة الطبية.. واكتشفت أنني أقود جيشا من الموظفين.. الذين يتلقون المساعده والذين يسجلونها في دفاتر وتقارير.

سائق التاكسي أعاد لي الحقيبه والنظارة.. كتبت بها استقالتي وتركت الوظيفه للمنتفعين بها من الطرفين.

قررت أن أكون مستشاره حره..

ما يشغلني الآن هو تأسيس جمعية خيرية لمساعدة الموظفين وإنقاذهم من موت الخلايا الإنسانية.



ـ انت ترضى لنفسك تيجى هنا كل يوم .. وتفضل تعجن فى الرمل زى المجنون ؟

رسائل خاصة

ظلت تقرأ كل حرف يكتبه وكأنها رسائل موجهة إليها شخصيا.. المجلة التى يعيش فيها وتسكن فيها مقالاته هى فسحة يوم الخميس.. هى استراحه الأسبوع..

تنتظر رحلاته كأنها هى حاملة الدعوة وتذكرة السفر.. يسافر ويعود.. تتدفق كتاباته.. ما توقعه وما رآه.. يقارن ويحلل ويضئ أنوارا جديده فى عقلها.

تغلق صفحات المجلة.. وتنام بعمق بعد الرحلة الطويلة التى صاحبته فى تفاصيلها.

تتغذى بكلامه.. وتتبلور أهدافها وأحلامها، ومبادؤها.. تستخدم عباراته فى موضوعات التعبير فى المدرسه.. تثير دهشة أساتذتها من عمق وبساطه ما تكتب.

رسمت له صورا كثيرة نسجتها من كتاباته المتنوعة.. ومن أبطال الروايات وزعماء الحركات الثورية فى العالم الذى كان يتخذهم أمثلة تدفعها للبحث عنهم وقراءتهم بالتفصيل.. تعرفهم وتضيف لصورته من ملامحهم.

اصبح هو المسيح وغاندى وبوذا.. وهو مارتن لوثر كينج وجيفارا.. وهو بائع الحجارة لأطفال فلسطين.. وهو شوبان وموزارت.. وهو ما يكل أنجلو وڤان جوخ.

هو المنقذ والمبشر والمعالج بالموسيقى والشعر والرسم.

سار معها يشجعها حتى عبرت الثانوية العامة بأمان.. وحققت أول تحدياتها.. أو أول ثمرات كتاباته.. وهو حق الاختيار.. اختارت كليه الاقتصاد والعلوم السياسية.. تريد أن تطل على العالم.. أن تفهم وأن تشارك فى إنقاذ الفقراء.. وفى تحقيق عدالة توزيع الثروات على البشر.

لم تره ولم تحاول.. ولم يهمها كثيرا أن ترى شكله.. يكفى أنها تعرفه جيدا.. وهو مازال يعرفها ويوجه لها رسائل خاصه فى كل ما يكتبه.

الجامعه هى العتبة الأولى للحياة.. التخلص من أتوبيس المدرسة.. حريه اختيار الزى، وحريه حضور المحاضرات.. تقديم نفسها بصفاتها الشخصية لعالم جديد.. إحساس مختلف ورائع كل يوم فيه هو تحدٍ جديد لإثبات وجودها والتعرف على الآخرين.

تدخل الجامعة بقلب جسور وعقل واع.. تفتش ما بين السطور فى البشر والكتب. تبحث عن جوهره كل كائن وكل كتاب.. خطواتها واسعة واضحة جريئة.. عيونها وآذانها ومسامها مفتوحه.. تشارك فى الأنشطه الاجتماعية والثقافية.. كل ضيف فى ندوات الكليه هو إنسان آت بحكاية خاصة.. تجربة إنسانية مع الحياة تحب أن تعرف تفاصيلها.. أهدافها ونتائجها.. ومطبات الطريق.. وأسلحه المقاومه.. وأن تسمعها من الضيف نفسه وترى شكلها على وجهه.

الأرض في وسع السماء.. وخصوبهة الحقول.. بلا أفق ولا مخاوف.

ومازال كاتبها المفضل يشريها بالمزيد.. ويوجه لها رسائله الخاصة.. كيف يتواءم مع المراحل المختلفه لحياتها بهذه السهولة!.

تلتقي بزميل هو دودة قراءه وبحث مثلها..يعرف كاتبها المفضل شخصيا.. يخبرها بما لا تعرفه عنه من ملامح شخصية.. ويتفقا على استضافته في الندوة القادمة للكلية.. ويحذرها من أن لكل إنسان ثلاثه وجوه.. وجه تراه بوضوح.. ووجه يخفيه ببراعة.. ووجه مثالي يتمنى أن يكونه، وهو الوجه الذى يستخدمه الكاتب في ملء الصفحات.

ويأتي اليوم.. تمتلئ القاعة بالطلبة.. نصفهم مدفوعون بالفضول لرؤيه الفارس الذى اخلت له زميلتهم الساحه كلها.

تصورته أكبر عمرا بكثير.. وجدته في الأربعينيات .. لكن يحمل هموم وصبر التسعينيات.. كلامه بلا استطراد.. عباراته قصيرة.. بسيطة مثل ملابسه وحضوره.. اعتذر بأنه لا يجيد الكلام ولا يتحرر إلا مع القلم.. ولكنه كان بليغا جدا.

حكى عن طفولته وشبابه وحاضره بصدق وبساطة.. واستطرد يسرد أمانيه لهم وله.. شعرت أن له وجها واحدا وليس ثلاثة كما حذرها زميلها.. استرخت واستراحت .. انتصرت على مخاوفها.. ممكن أن ينجح الإنسان بالوجه المثالي الذى يتمناه.. هذا ما كانت تريد التأكد منه.

إذن فلسفه والدها الموظف القائمة على حكمة دع السفينه تسير ، وانحنى للأمواج العاتية .. هى فلسفه الأعزل من أسلحه الدفاع والمقاومة والهجوم .. وهي لن تبدأ معركة الحياة بفلسفة الموظفين .. لكن بالأسلحة .. سوف تحتفظ بإنسانيتها وباشتياقها للغد .. ولن تتكوم مثل والدها مساء أمام التليفزيون بلا طاقة ولا أحلام .. كل يوم جديد في الحياه هوتجربه مختلفة .. مغامرة .. لن تعيشن أياما مكررة متساوية تهبط بمؤشر الحياة الى الصفر .

كان أول اختبار لاستقلاليتها هو اختيار التخصص .. زميلها الذى تحول الى صديق اختار دراسة الاقتصاد ... وهى اختارت السياسة .. الاختلافات الجديدة أنعشت علاقتهما .

انتهت مهمة الجامعة .. حملا شهادتيهما والأحلام وهبطا إلى واقع الحياة .. عائلته واسعة النفوذ .. توارثت عضوية البرلمان من قبل الثورة .. اختاروا له بنكا أجنبيا وظفوه فى أهم أقسامه .. يراعى مصالحهم ويشق طريقه على نفس الدرب .

أما هى فاختارت الاستمرار فى نفس النسيج .. العمل فى مركز للدراسات السياسية مع أستاذها فى الجامعة .

كل منهما وجد نفسه فى عمله .. وحياته الجديدة .. وأصبح الآخر هو الواحة المريحة .

تزوجا .. تساهلا وتنازلا لإرضاء بعضهما .. مرت السنوات الأولى للزواج ثقيلة .. لكن بدون صدمات حادة .. كانا يريدان إنجاح العلاقه لأنها اختيارهما .

يساندها كاتبها المفضل.. وإن كان عدد الكتاب المفضلين اتسع وتشعب.. لكنها تحاول التعامل مع الواقع وتفاصيل الحياة اليومية بذخيرة الأحلام والمبادئ.. تجاهد لتحويل الهزائم الصغيرة والجروح إلى خطوة على الطريق.. تشحن نفسها بوقودها الذاتي.. تجاهد لتعيش بوجه واحد لأنه ممكن وليس مستحيلا.

أما هو فالأرقام علمته أن دفتر الحياة لا يحتمل إلا مدينا ودائنا.. خسارة أو مكسبا.. وأن هناك فوائد مركبة وفوائد بسيطة.. كل خطوة في حياته يسبقها دراسة لتحقيق أعلى معدل فائدة وأقل خسائر.. ابتداء من شراء التموين الأسبوعى والشهرى للمنزل.. الى تحديد أماكن الترفيه وعدد الأصدقاء ونوعيتهم.

تمر معه بأزمات لا يؤيدها فيها أحد.. لأن مقاييس أحكامها مكانها الروايات والأفلام المخدره فقط.. فتعود تتراجع وتصمت.

يتركها تحلم وعند التنفيذ يبدل مسار الحلم بحسم ولا تملك إلا الرضوخ.. تحلم بسيارة صغيره ماركة ولون محدد يبهجها.. لا يعترض.. لكن يدرس الجدوى الاقتصادية للسيارة.. ويحدد أفضل السيارات الصغيره والألوان.. يشتريها وحده ليختصر الجدل معها.. ويواجهها بأنه أراد مفاجأتها وإسعادها.

في عيد ميلادها يهديها خاتما ماسيا جديدا.. أيضا بالمواصفات الاقتصادية.. وبعدما يصحبها أكثر من مرة للفرجة والاختيار!.

يزدحم يومه وعقله بالمشروعات والدراسات.

وتصل طفلتهما الأولى.. ومعها تتوقف عن طرح السؤال اليومى على نفسها.. هل أنا سعيده؟.

هاهو حلم جديد ينمو أمامها.. وأحاسيس جديدة رائعة.. أن تكون مسؤلة عن مخلوق في احتياج كامل لها.. ملاك صغير جميل.

تعلمها الخطوة الأولى.. والكلمه الأولى.. وتحكي لها حكايه قبل النوم.

تحكي لها عن ڤان جوخ الذى أحب الزهور جدا ورسمها كثيرا.. وفي الصباح تهديها ألوانا وأوراقا لترسم الزهور كما تحبها.

وتحكي لها عن موزارت الذى سمع موسيقى الطيور والحيوانات والهواء.. وقلدها على البيانو.. وتتركها تجرب الفرق بين صوت الحمار وصوت العصفور على البيانو الصغير.

تمد خيوطا بين طفلتها والعالم الخارجي..لتضعها على أول الطريق كما فعل معها كاتبها المفضل وما يزال.

أوراق ابنتها تتفتح.. وساقها تستطيل.. عيونها تطل من عقل لا يتوقف عن التساؤل.

تصل بابنتها الى أول اختبار لهما مع الواقع.. وصلت الى سن المدرسة.. وعليها أن تختار لها الأفضل.

يتركها زوجها تحلم وتخطط.. يحسب حساباته ويحدد لها ثلاثه مدارس فقط عليها زيارتها لاختيار الأصلح.. ودائما يملك قوة إقناع لاتترك لها مساحة للاعتراض.

لم تدرك أنها بدأت تكتسب ثلاثه وجوه.. إلا عندما انجرفت مع التيار وأصابها هلع الأمهات الصغيرات.. ودخلت مثلهم دوامة اصطياد مكان لطفلتها من بين أنياب التنسيق.. وصممت على

إنقاذها من مصير أغلبيه الأطفال الخاضعين.. لن تسمح أن تحتفل بعيد ميلادها الثامن وهي في أول المرحله الأبتدائيه.

عرفت أن السائد هو إما تزوير شهاده الميلاد حسب شروط وزحام كل عام.. أو الحصول على توقيع وزير التعليم بالاستثناء.. أو واسطة كبيرة مخيفة.. أو رشوة!.

الواسطة هي الأقرب منالا.. هو حماها الذى يملك تليفونا ساحرا يمهد كل الطرق. المدرسة عريقة.. مرتفعة القامة والأعمدة.. أول مرة تدخلها.. صالة الانتظار بهو كبير.. نوافذه المرتفعة تطل على حديقة تنطق بالعناية والفرح.. أرفف كثيرة تحمل نياشين وكؤوس تفوق.. أشغال فنية ورسوم أطفال تجمل الحوائط.

جلست مطمئنه تماما.. لم تهتم بتسميع أى أسئلة وأجوبة على طفلتها مثل باقي الحشد المنتظر.. ولم يلمسها تيار القلق والعصبية.

لم تنتظر طويلا.. نادوا اسم ابنتها وتقدمت المسئولة تستقبلها بحرارة.. وتفحصهما بدقة في نظرة شاملة قبل جلوسها خلف منضدة في مواجهة ابنتها لاختبارها.

فتحت الموظفه المسئولة كتابا مصورا.. حيوانات وطيور وصغارها بدون ترتيب.. سألتها برقه شديده ماهذا؟.. (وكان ال هذا فيل كبير).. نظرت الطفلة مباشرة في عينى الموظفة وأجابت «ناموسة» .. ضحكت وصححت لها المعلومه «قصدك فيل».. وتابعت الاختبار.. ومن بين هؤلاء ابن أو بنت الفيل؟.. اشارت طفلتها بعد تفكير على الدجاجه بكل ثقة.

اشرق وجه الموظفة وأعادت المحاولة بمزيد من الرقة.. أشارت على الدجاجة وسألتها.. وما هذا؟.أجابت «فراشة».. ارتفعت ضحكتها أكثر وصححت «قصدك دجاجة» واين ابنتها؟

صاحت الطفلة مهللة وهى تشير على صوره القرد «النسناس».

بابتسامه إعجاب وضعت الموظفه المسؤله علامه صح كبيرة واضحه فى نموذج الاختبار.. مع كل الخانات الخاصه بالتعرف على الحيوانات والطيور والعلاقات بينها وسلامة النطق.. والشخصية.

وكان السؤال التالى عن الألوان.. قدمت لها كل الألوان وبدأت تسألها عنها .. أصرت ابنتها دون تراجع أن كلهم «أحمر».. قهقهت الموظفة وهى ترسم علامة صح كبيرة أخرى على جميع الخانات الفارغة!!.

انتهى الاختبار فى أقل من خمس دقائق.. وحصلت على امتياز .. وعلى خاليه من أى عيوب جسدية أو ذهنية.. وأنها نشيطة متجاوبة ذكية اجتماعيه ولماحة.. وكتبت المسئولة أمامها أنها تطالب باستثناء هذه الطفلة من شروط السن لأن لها أخوات بالمدرسة... ولأن والدتها عضو فعال فى مجلس الآباء.. وأعطتها استمارة قبول وحددت لها موعد دفع المصاريف!!!.

نظرت بذهول للموظفة التى زورت وزيفت وسرقت حق طفلة أخرى.. وجهها مثل سكين بارد.. هذه رأس أفعى لسانها مستعد لاقتناص الرشوه وابتلاعها فى لمحة بصر.

تركت الاستمارة.. وسحبت طفلتها للخارج.. لم ترد التحية ولم تنظر خلفها.

خرجت من المدرسة ومعها قرارا.. لن تترك ابنتها لهم أبدا.

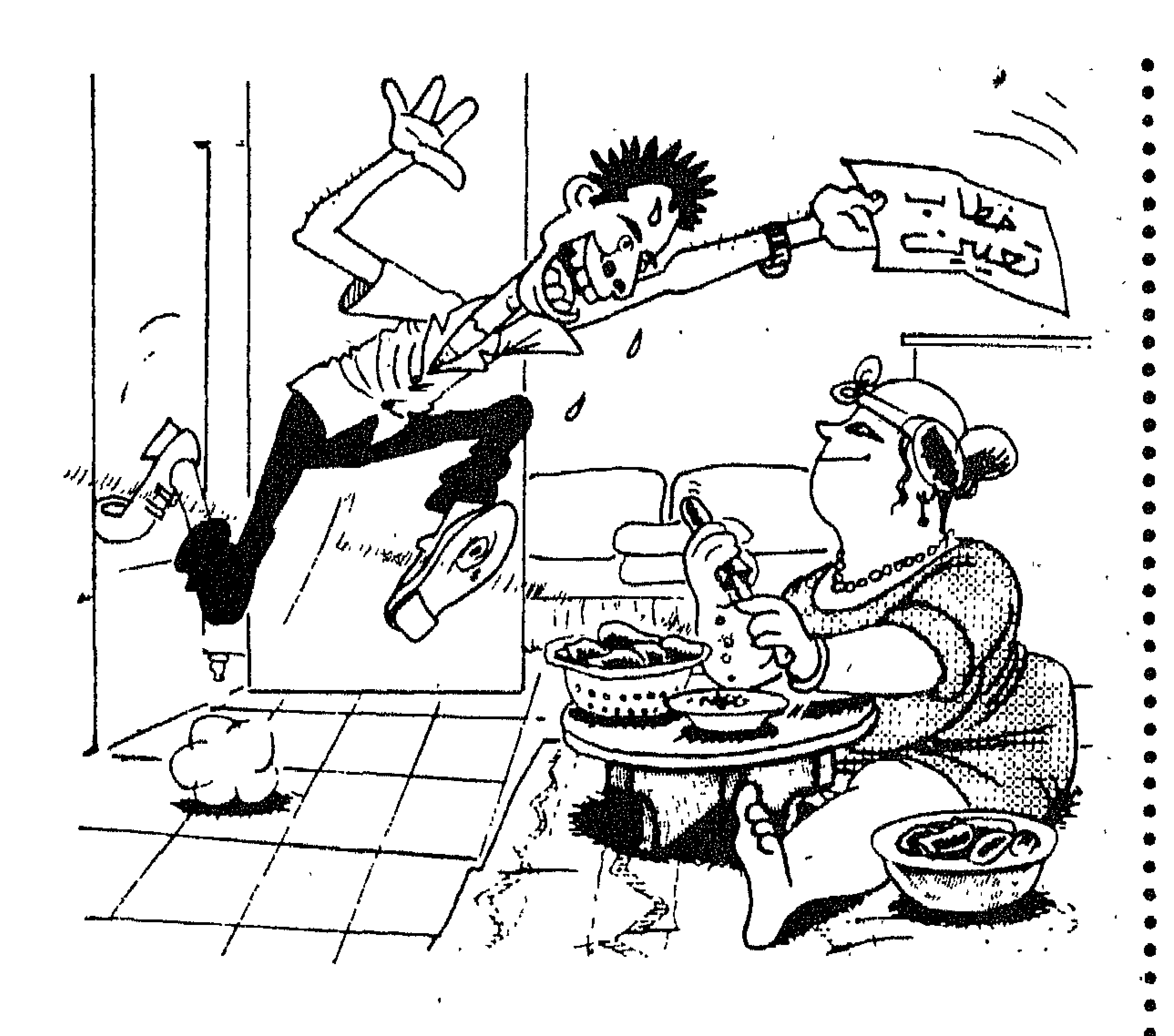
اعفاها زوجها من هذه المهمة.. تقدم هو للمدرسه التاليه فى اختياراته.. قدم الأوراق ، ودفع المصروفات فى نفس اللقاء.. ولم يخبرها بالتفاصيل ولا مبلغ ونوعية الرشوة.

لأول مرة تجد في نفسها الجرأه أن تطلب كاتبها المفضل تليفونيا.. تخاطبه مباشرة بعد كل هذه السنوات.. داخلها بركان غضب وحزن لن يخمده إلا هو.. يجب أن يفضح من يستقبلون أطفالنا بالرشوة.. ومن يسرقون حق غيرهم بالواسطة .. وأن يحاكم من أجبرونا على دخول السوق.. سوق الجملة والمزاد بأطفالنا.

أجابها بنفسه.. ارتاحت لأنه مازال كما هو.. يجيب على تليفون قارئة مجهولة ترغب فى الحديث معه دون سكرتيرة تسألها: مَن ولماذا؟

تركها تحكى ملخص ما تصورته مأساة أخلاقية.. رأت وجهه يبتسم وهو ينصحها بأن تترك لزوجها مهمة تقديم الأوراق لابنتها فى مدرسة أخرى.. لأنه أدرى بالسوق.. ولأن طفلة بهذا الذكاء ولها هذه الأم المثقفة يجب أن تنال فرصة دخول المدرسة فى سن صغيرة.. وعليها ألا تفقد إيمانها بنفسها.. ولكن تختار بذكاء متى تسير ضد التيار.

أغلقت السماعة.. وتوقفت عن قراءه مقالاته الى حين.



ـ باركيلى ياامه .. بقيت من محدودى الدخل !

المظروف الأصفر

(١) البوسطجى

تقلب الخطاب الأصفر فى يدها.. تتأكد من صحة اسمها والعنوان.. تعيد قراءة السطور الثلاثة.. يتسرب اللون الخشن من الخطاب لأطراف أصابعها لوجهها.. تكاد تتخشب كشجرة لمستها صاعقه مباغتة .. تنسحب الأدوار الخمسة من تحت قدميها.. فى لحظة يتلاشى كل شئ حولها .. تهوى الى قاع أساس العمارة.. ويتصاعد الرمل الأصفر والغبار حولها.. تختنق.. تطل الدموع تبعد عنها الحقيقه وتعزلها.

الخطاب صحيح وواقع.. تقدمت أصابعها المذهوله توقع للبوسطجي بالاستلام.. وظلت تؤكد وتكرر لنفسها إن هذا النهار أسود.

تجمد البوسطجى أمامها.. يتأملها فى بلاهه ولاينصرف.. يكاد ينادى على أهلها.. إنه يعرف السطور الثلاثه.. قرأها.. إنه الخبر السعيد.. خبر تعيينها فى مصلحة الضرائب.. وصل الى بابها قفزا على السلالم فى نفس واحد ليبشرها.. وينزع منوت الانتظار من وجهها.

هذا الخطاب يتمناه نصف شباب مصر.. حلاوته لا تقل عن ثمن كيلو لحم مع دعاء بدموع يغمره طوال مدة خدمته فى المنطقة.

هذا خطاب يفتح أبواب الرزق العمر كله.. ويمنح بسخاء بلا حساب ولا مجهود.. مالها هذه الغبية !!

يهبط البوسطجي متباطئا.. كل مجموعة سلالم يرفع نظره وأذنيه لأعلى منتظرا النداء والبقشيش.. لكن الصمت يهبط خلفه ثقيلا.. لانداء. ولاصوت.. ولا حتى دخلت واغلقت الباب.. هاجمه خاطر أن هذا الوجه المصدوم ممكن أن يلقى بالجسد كله في بئر السلم.. فقفز هاربا للخارج.

تحسس الورقه المالية الجديدة في جيب القميص.. لولا خرفشة العشرين جنيها ما كان تركها ولا انصرف.. سبحان الله منذ دقائق كان يسلم نفس هذا الخطاب الأصفر للجارة في العمارة المقابلة.. السيده الصبوحة الوقورة فقدت اتزانها بمجرد رؤيتها للخطاب وقبلته في جبينه.. أطلقت زغرودة لإيقاظ العمارة.. هجم عليه ابنها يحضنه ويجذبه للداخل.. يعانقه ويصرخ.. يقبله ويضغط على وجهه بذقن خشنة اكتئابا.. أدمى بشرته وصالحه بزجاجة عطر وورقة مالية طازجة.. الخطاب الذى سلمه حول حياة ابنهم من عاطل الى مهندس بالحي ونعيمه وهناه العمر كله.

تركهم مزهوا بنفسه.. فخورا بوظيفته.. فيروز تغني له: يامرسال المراسيل.. سحب بساط الريح وصعد قافزا سلالم خمسه أدوار ليسلمها خطابها الأصفر هي الأخرى.. يمنحها دعوة الدخول الى ولائم مصلحة الضرائب.. مأمورة خبيرة مثمنة تقدر ما يدفعون ويقدرون ما تفعل.. فما لها هذه الغبية!!

واسى نفسه.. ستفهم بالتأكيد.. وسيحصل على مكافأته مع الخطاب القادم.. خطاب تحويلها للكشف الطبى بعد أسبوعين.. ربما لا تعرف بعد!!



ــ انا مش قلت لــك ستين مرة .. مــاتخليش العيــال يتفرجوا على مشــاهــد العنف ؟

(٢) المرسل اليها

مازال لون الخطاب الأصفر الخشن يصبغ وجهها.. وسواس قهرى تملكها أن تفتح الحقيبه بعد كل محطه مترو لتتأكد من وجود الأوراق.. الخطاب الأصفر.. شهاده الميلاد.. الصور الفوتوغرافية.. شهاده التخرج.. وتعيد قراءة اسم الإداره التى ستتوجه إليها لتسليم نفسها.

المحطه القادمة هي الهدف... تركت مقعدها بمجرد تحرك العربة والتصقت بالعمود المعدني خلف الباب المغلق.. اهتزازات المترو تيارا كهربيا يسرى من قدميها الى منابت أعصابها.. ضغط السائق مع الفرامل لنهايتها كأنه فوجئ بالمحطة أمامه.. لفظها الباب الثقيل مطلقا نفخة هواء قوية دفعتها للأمام فاقدة توازنها.. وارتطمت ضلفتاه خلفها.. وهرب مسرعا صارخا بعجلاته ونفيره.

صعدت من مخبأ المترو.. استقبلها ضوءالصباح وضجيجه.. سارت مع قطيع الموظفين.. هاهى المصلحه تطل من آخر الشارع.. يمين الميدان.. السير فرصة لإعادة الاتزان للنفس والجسد.. المترو سحب كل قوتها وأضافها لعجلاته.. هبوط وعرق ورغبه فى القئ.. لكنها تتقدم.. وتعيد التأكد من أوراقها داخل الحقيبة.

ترى صورتها فى مرآه فاترينه محل مغلق.. شكلها موظفة.. ليتها ما رضخت لنصائح والدها التى هى أوامر ديكتاتور تعيد أمها تغليفها وتجميلها.. ليتها صممت على ارتداء البنطلون الچينز وبلوزات الجامعة المريحة.

تسير للأمام.. في مرآه الفاترينة التالية ترى وجه والدها.. تطاردها نظره الانتصار والزهو.. مازال له نفوذ وسلطة بعد ثلاثين عاما من تركه لمصلحة الضرائب.. ومصلحة الضرائب هى اختياره لها.. وهو يعرف دائما كيف يحصل على ما يريد.. وهو يريدها مأمورة ضرائب في قسم محدد.

في هذه المصلحة بدأ حياته.. وعرف متى ينسحب منها وكيف يستمر نفوذه داخلها.. الدهاء قبل الخبرة هو سبب نجاحه وحيرة حاسديه . هو يعرف الأصح.. يعرف البداية الصحيحة لابنته.. يجب أن تدخل المصلحة.. تدور في جحورها .. تتعامل مع الحملان والوحوش موظفين وزبائن.. يجب أن تعرف لكن ليس منه.. وأن تتعلم الرموز والشفرة.. وأن ترى الحقيقة بنفسها.. وتتقبل صدماتها قبل استقبالها شريكة له في مكتبه الخاص.. شريكة خاضعة لوالدها الحبيب... أمينه على أسراره.. لا تجادل ولا تطمع ولا تخونه أبدا.. وتمنحه حنان الإبنة ورعايتها.

يعرف فعلا كيف يحصل على ما يريد.. ولكنه لا يعرف انها لم تعد طفلة لا تعيش إلا في ظل جناحيه.

طلب منها والدها أن تتوجه لمدير المصلحة مباشرة وتعرفه بنفسها.. وسيتولى هو تقديمها واختيار موقعها.. رفضت.. مثلما رفضت أن يحملها السائق للمصلحة وأن ينتظرها.

تريد أن تكون نفسها.

مدخل قديم.. استعلامات.. ثم سلالم صاعدة رخامها جليد منزلق.. أكلت حروفه ملايين الأحذيه الصاعدة والهابطة.. ممرات طويله.. دوسيهات تحمل تفاصيل حياه البشر وأسرارهم تحيط بدورات المياه.. وتغطى الكهوف والدهاليز بين المكاتب!!

شؤون العاملين.. يتسلم الموظف أوراقها دون النظر في وجهها.. يقرأ الاسم بصوت مرتفع ليسمعه زملاؤه.

يعيد لها أوراقها ويدفعها لرئيس القسم.. يستقبلها بحماس.. يتفحصها بنظره تبدو إعجابا.. لكن تصلها التهاما لفريسة طال انتظارها انتقاما من توحش أبيها الحوت.. أو هكذا شعرت.

يعدد صفات والدها بحنجرته.. يصمم على ضيافتها.. يتمتم بعبارة قصيرة غير واضحة في التليفون.. يتقدمها بنفسه الى مكتب تسبقه مشاية حمراء على بلاط نظيف.. ويحرسه ساعٍ وحارس أمن.. وتسبقه سكرتاريه.

يضغط صاحب المكتب على كفها.. يتأملها.. يؤكد أنها تشبه والدها.. وأنه عزيز وزميل دراسة.. ولو لم يترك المصلحه لكان رئيسها الآن.. لكن يابخته!!

يجبرها على قبول ضيافته.. يأمر بإنهاء أوراقها.. وفي لحظه تجد نفسها في القسم الذى حدده والدها.. تجلس على كرسى مؤقت لحين تخصيص مكتب لها.. الترحيب المبالغ فيه يضاعف قلقها.. يعيد لقدميها التيار الكهربائى للمترو.. تنتفض منابت أعصابها.. تحلم بالهروب ولو قفزا من هذا الشباك المرتفع.

رئيس القسم يشرح لها طبيعه العمل.. ونوعيه زبائن القسم..
ويطمئنها بأنهم حولها وخلفها عيونهم تحيطها دائما.

لا تسمع ما يقول.. إنما تتأمل ملامحه.. إنها ملساء مثل بشرة والدها.. خاليه من تجاعيد أحمال الماضي وقلق المستقبل.. واثقة مطمئنه!!.. لم يجهدها خوف من تقدير خاطئ يحطم حياه تاجر أمين يجهل ألاعيب التهرب أو يرفضها.. نظراته ثابتة نهمة لصياد ماهر يستمتع بكل لحظة في عمله.. تعلم الصبر وبرع في تحديد لحظة الانقضاض على الفريسة.. وعلى التهامها ببطء وتلذذ.

تدير وجهها عنه.. تتأمل الزبائن.. ملامح الوجوه رأتها كثيرا.. أغلبها ملامح فريسة راضية شاكرة ممتنة.. لأن الصياد سيعيدها للحياة لتسبح وتتناسل وتتكاثر.. وتتغذى لتمنحه المزيد.

الصياد بالنسبة للفريسة هو شحات فقير ينتظرها إلى الأبد على الشاطئ.. وهي تعطى الزكاة عن حياتها.. ولا يعنيها كيف يوزع الشحات أموال الزكاة.

وهي صغيرة كانت فخورة باحترام زبائن المصلحة لوالدها.. واستمرارهم في التمسك بنصائحه.. يجاملونه في كل المناسبات بسخاء.. وبعد دخولها الجامعة سمح لها بالتدريب في مكتبه المتعدد الأنشطة.. من خبير ضرائب الى صاحب شركات ومصانع.

في مكتبه.. تعلمت أن تخفض رأسها مع خروج زبائن الضرائب.. عاجزة عن النظر في عيونهم بعد دفع الأتعاب والعمولة لوالدها والرشوة لخبير المصلحة.

الزبائن وموظفو المصلحة يهنئونها بعبقرية والدها في محاربة ظلم وغباء القانون وعيونه المغلقة.. وهي تبحث عن وجه يخفي خجلها.

تنتفض على صوت فرقعة ورذاذ بارد ينتشر على وجهها.. إنه الساعي.. حتى الساعي يصمم أن تشرب البارد الفائر تحية لوالدها!!.

تشابكت أمعاؤها.. تقلصت.. ضغطت على الحجاب الحاجز وعلى الرئتين.. راغبه في القئ عاجزة عن التنفس.

لا تدرى بنفسها إلا داخل تاكسى يحملها لمنزلها.. كفها تطبق على البقايا الممزقه للخطاب الأصفر.. تفتح الشباك فوق الكوبرى.. تلقى بفتات الخطاب الخشن على وجه صفحة النيل.. والنيل يستجيب.. يدفع الفتات أمامه بسرعة .. الى البحر المالح ليختفى اللون.. ثم الكلام وتذوب ألياف الورق..

ابتسم لها النيل.. انفض الاشتباك بين أمعائها والحجاب الحاجز.. وهاهو هواء النيل يمرح في تجاويف رئيتها.

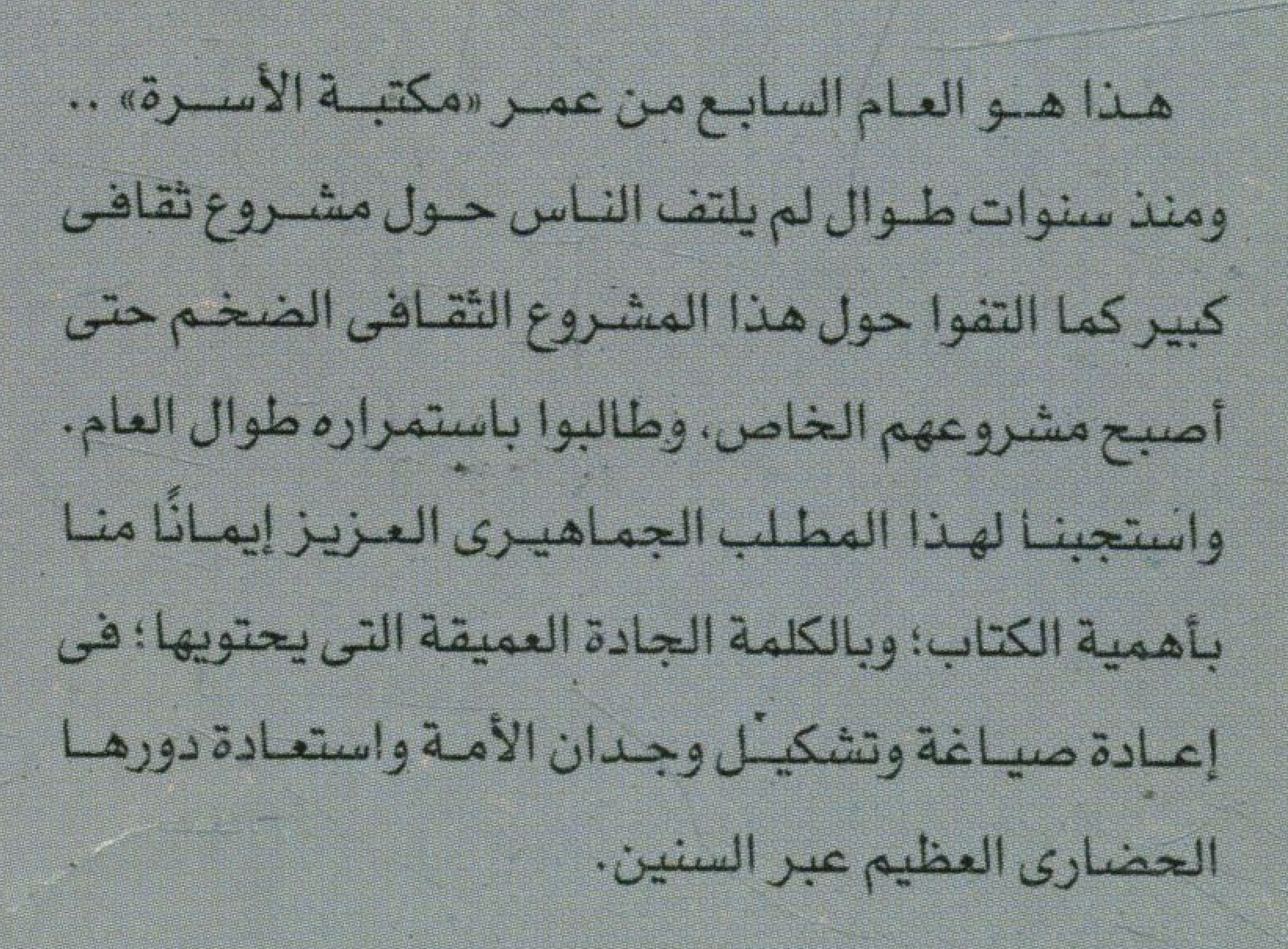
الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٩٨ / ٢٠٠٠

I . S . B . N 977 - 01 - 6936 - 6





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع



١٥٠
قرش